المبحث الثانى
التعريف بالمصنَّف
أولا : التعريف بموضوع التصنيف (متشابه القرآن)

ذكرت مادة (ش . ب . هـ) فى القرآن العظيم فى تسع آيات كريمة :

ــ منها ثلاث آيات فى سورة البقرة وهى :

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ من الآية : ٢٥ .

﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ من الآية : ٧٠ .

﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ من الآية : ١١٨ .

ــ وآية فى سورة آل عمران :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ من الآية : ٧ .

ــ وآية فى سورة النساء :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ من الآية : ١٥٧ .

ــ وآيتان فى سورة الأنعام :

﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ من الآية : ٩٩ .

﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ من الآية : ١٤١ .

ــ وآية فى سورة الرعد :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ من الآية : ١٦ .

ــ وآية فى سورة الزمر :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ من الآية : ٢٣ .

التشابه له معنيان :

الأول : بمعنى المماثلة :

قال الفيروزآبادى فى البصائر [١] فى مادة التشابه : « الأصل فيه ألا يميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه لفظا كان أو معنى » .

وقد جاء ذلك وصفا للقرآن العظيم : يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ من الآية : ٢٣ سورة الزمر .

قد تشابهت آياته فى التنزه عن كل وصف يلحقه بكلام المخلوقات ، وتماثلت فى كل وصف يوصف به كلام رب العالمين ، منبئة أنها تنزيل من حكيم حميد هدى ورحمة للعالمين ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ .

كذلك وصف آيات القرآن بالإحكام قال الله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ الآية : ١ سورة هود .

والمراد هنا الإحكام العام : فلا يلحق آيات القرآن العظيم خلل أو قصور أو تفاوت فى النسق والإعجاز . كتاب أحكمت آياته إحكاما لا يرتاب معه عاقل فى أنها منزَّلة من الله تعالى على أفضل خلقه وأكمل رسله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، قد حملت من البراهين لمن تدبَّرها من أولى الألباب ما يعلن أنها كلام الله عز وجل : منها يتفجر كل كمال لا نهائى ، ومنها تسطع أنوار الهداية بلا حدود ، وتدكدك سطواتها معاقل الباطل منبئة أنها من لدن حكيم خبير .

هذان الوصفان لكتاب الله تعالى نزلا فى سورتين مكيتين ، وقد تقدم نزول وصف الإحكام أولا فى سورة هود ، وترتيبها فى النزول بين السور المكية الحادية والخمسون[٢] .

وتلاه الوصف بالمتشابه فى سورة الزمر وترتيب نزولها بين السور المكية الثامنة والخمسون[٣] .

الثانى : التشابه بمعنى الالتباس أو الإشكال :

قال الليث : « المشتبهات من الأمور المشكلات » . وقال ابن الأعرابى : « شبُه الشىء : إذا أشكل » . وقال ابن قتيبة : « أشكل أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله . ثم ربطوا

---

(١) الفيروزآبادى : بصائر ذوى التمييز ١ / ٢٩٣ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٩٨ .
(٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١ / ١٩٣ .

التشابه بالالتباس والشك، وإن لم يكن هذا حاصلا فى الأمر أو الشىء بل للشبه بالغير»[١] .

وسيأتى مزيد بيان عن ذلك فى الكلام على آية سورة آل عمران .

الأصل فى علوم المتشابه آية سورة آل عمران : قال الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ الآية : ٧ .

التنبيه إلى ما فى الآية الكريمة من دلائل الإعجاز :

١ ــ من صفات آيات الكتاب العزيز أن منها المحكم ومنها المتشابه :

والمراد بالإحكام هنا : وضوح المعنى فلا يحتمل اللفظ إلا معنى واحدًا .

أما المتشابه فهو ما احتاج فهمه إلى تأمل وتدبر لأن لفظه يحتمل أكثر من معنى أو لأنه يدل على بعض ما استأثر الله تعالى بعلمه مثل قيام الساعة ، أو لأنه يدل على ما يحسن فيه تفويض علمه إلى الله تعالى مثل آيات الصفات والأفعال .

قال الإمام الماتريدى [٢] : « المتشابه فى القرآن هو الذى تعلق به كثير من المشركين حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الآية ».

وعرّف الشافعية المتشابه بأنه : « ما لم يتضح معناه : وعليه يكون مجازا أو كناية عما لا يتضح معناه » وهو قريب من قول ابن قتيبة . وقد سبق ذكره .

وذهب الأحناف إلى أنه : « هو الخفى الذى لا يدرك معناه عقلا ولا نقلا وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه : كعلم الساعة والحروف المقطعة فى أوائل السور » .

ونقل القاضى أبو يعلى مذهب الحنابلة عن الإمام أحمد أن « المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه ما احتاج إلى بيان » .

٢ ــ الالتباس إنما يرجع إلى طالب المعنى لا إلى النصّ :

فالقرآن العظيم نزل ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ الآية : ١٩٥ سورة الشعراء : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الآية : ٢ سورة يوسف . ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الآية : ٣ سورة فصلت .

ومن المقاصد الواضحة لنزول القرآن العظيم بلسان عربى مبين : الفهم الحق ، والإدراك الدقيق لمعانى القرآن ، والمعرفة التامة بأهدافه ، ومراميه ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ،

---

[١] ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١ / ٧٥ ــ ط سنة ١٣٧٣ هـ .

[٢] أبو منصور الماتريدى : تأويلات أهل السنة ١ / ٦٤ ــ ط ١٣٩١ هـ .

والتمسك بهديه . ومن أهم هذه المقاصد : تحدى العالمين : العرب خاصة ، والناس عامة فيما تحداهم فيه .

فمصدر الزيغ إذن هو القابلية والاستعداد عند الذين فى قلوبهم مرض وهذه القابلية تدفعهم إلى تتبع ما تشابه منه ابتغاء حمله على المعانى المؤيدة لأهوائهم ، ليتمكنوا من فرض زيغهم وضلالهم على غيرهم ، مع الظهور أمام الناس بمظهر المتمسك بالكتاب والسنة ؛ وهم فى الحقيقة أشد الناس تحريفا للكلم عن مواضعه ، وهم يعلمون ذلك ولا يجهلونه .

قال الإمام الألوسى[1] :

« ﴿ وَأُخَرُ ﴾ نعت لمحذوف معطوف على آيات أى « وآيات آخر » . ووصَفَ ﴿ أُخَرُ ﴾ بقوله سبحانه : ﴿ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ وهو فى الحقيقة صفة لمحذوف أى « محتملات لمعان متشابهات لا يمتاز بعضها على بعض فى استحقاق الإرادة » ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق وعدم الاتضاح قد يكون للاشتراك أو للاحتمال أو لأن ظاهره التشبيه . فالتشبيه فى الحقيقة وصف لتلك المعانى وصَفَ به الآيات على طريقة وصف الدال بما هو وصف للمدلول .. وعليه يكون التشابه مجازا أو كناية عما لا يتضح معناه » .

٣ ــ ليس هناك نص فى تعيين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات :

ومعنى ذلك أن معرفة المحكم والمتشابه مردها إلى ما قذفه الله تعالى من النور فى قلوب الذين أوتوا العلم فأعطاهم هذه المعرفة ؛ ولذا اختلف المحكم والمتشابه بالنسبة للأفراد والعلماء بحسب دائرة علم كل منهم . فقد تكون الآية من المتشابه عند شخص ثم يعلم تأويلها ، فتصبح عنده من المحكم . وبالعكس قد تكون الآية محكمة ولكنها بالنسبة لمن يلتبس عليه معناها تكون من المتشابه .

٤ ــ لا يعلم حقيقة تأويل محكمه ومتشابهه إلا الله تعالى :

إن علم العالمين لا يتجاوز مرتبة الإمكان ولا يتعداها بحال ، وليس فى وسع المخلوقات حصر تأويل نهائى لمعانى القرآن العظيم ؛ إذ إن علم المخلوقات مجتمعة فى كل ما يربطهم بالله تعالى لا يبلغ كنه حقيقة آية من آيات الذكر الحكيم . وما علم المخلوق بالنسبة إلى كلام الخالق إلا كنسبة العدم إلى ما لا نهاية . ومعنى هذا : أنه لا نهاية للترقى فى معرفة علوم الكتاب العزيز ، كما يعنى أيضا أن كل ما حرره العَالَمُون من تفاسير لكتاب الله تعالى لا يبلغ قطرة بالنسبة لما حواه من العلوم ؛ ويعنى كذلك أن مرتبة الإيمان تقتضى تفويض علم حقيقة كلامه عز وجل إليه سبحانه . وهذا هو ما يقتضيه الوقوف عند لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ .

---

(١) الإمام الألوسى : روح المعانى ٣ / ١١٥ .

وهناك فرق بين تفسير كلام الله تعالى أو تأويله ، وبين إتيان تأويله : فالأول معرفة الخبر ، والثانى هو نفس وقوع المخبر [١] به . وشتان ما بينهما ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ الآية: ٥٣ سورة الأعراف .

فمعرفة الخبر هو معرفة تفسيره . ومعرفة المخبر به هو حقيقة تأويله التى لا يعلمها إلا الله تعالى .

٥ ــ تكليف المؤمنين بطلب العلم :

من التبس عليه معنى آية ينبغى عليه أن يأتى البيوت من أبوابها فيسأل أهل الذكر عما خفى عليه من المعنى ، ويواصل البحث حتى يعثر على من يوصل معناها إليه .

٦ ــ طلب العلم بالمحكم مقدم على ابتغاء العلم بالمتشابه :

قال أبو عبد الله النكرباذى فيما نقله عنه الإمام السيوطى فى الإتقان [٢] فى تعليل تقديم العلم بالمحكم : « لأن المحكم أصل والعلم بالأصل أسبق . ولأن المحكم يعلم مفصلا . والمتشابه لا يعلم إلا مجملا » .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ إخبار عن الآيات المحكمات بصيغة المفرد . والأم : الأمر الجامع الذى يُؤَمّ ويقصد ، والأصل المتعين الشىء منه .

ويؤخذ من الآية الكريمة البدء بالضرورى من العلم ومراعاة الأولوية فى علوم المحكم والمتشابه ؛ إذ التهاون فى هذه القاعدة يورث الهلاك .

٧ ــ الذكر الحكيم محفوظ من أن ينال فهمه زائغ :

إن الفهم فى كتاب الله تعالى ــ بعد توافر جميع الشروط التى قررها الأئمة للمفسر ــ موهبة من الله تعالى يهبها لمن يشاء . ومن لم يؤت هذه الموهبة فليس فى وسعه إلا ترديد أقوال غيره عن فهم أو بغير فهم .

والأئمة بعد ذلك متفاوتون فى الفهم فى كتاب الله تعالى حسب استعداداتهم . والتفاوت فى الفهم كذلك يكون على قدر تفاوت مكانة القرآن الكريم فى القلوب ، وعلى قدر قيام المؤمن بحق القرآن وعلمه بآياته .

ومن دلائل إعجاز القرآن العظيم أنه لا يؤتى الفهم إلا من اعتصم بحبل الله ، واتقاه عز وجل ، وتمسك بالهدى القرآنى .

---

(١) جمال الدين القاسمى : محاسن التأويل ٤ / ٧٦٠ .

(٢) الإمام السيوطى : الإتقان ٢ / ١٢ .

وكل تفسير يحوى من العلوم بحسب ما أوتيه صاحبه من الفتح فى فهم معانى القرآن حسب قابليته أو استعداده ، وطالما كان عطاء القرآن لا يتناهى بطلت دعوى كل مكابر يصرح بأن تأويله للقرآن هو القمة التى ليس وراءها مرمى ، وهو ادعاء مرفوض لقيامه على مصادرتين : دعوى الإحاطة بكلام الله تعالى ، ودعوى تحجير فضله عز وجل والافتراء بالإخبار بذلك .

ومن دلائل الإعجاز أنه لا سبيل للمجرمين أو الزائغين للعقل عن القرآن الكريم ويلحق بهؤلاء من اتبع هواه أو بدّل وغيّر فى دين الله تعالى ابتغاء تأويله .

وكم من خائض فى علوم التفسير وهو لا يجنى من ذلك سوى الزيغ والضلال لعدم طهارة سريرته ، وسوء نيته . ومرجع الأمر كله فيما يتصل بالكتاب العزيز إلى الراسخين فى العلم الذين لا يبتغون فيما علموه من محكمه ومتشابهه إلا وجه الله تعالى ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

٨ ـ الحث على الترقى والرسوخ فى العلم :

الإسلام شامل لجميع العلوم والمعارف التى تربط الإنسان بالخالق وهذه الرابطة هى أساس كل كمال إنسانى ، وما انحطت الأمة إلا حين تهاونت فى ربط العلوم والمعارف بالله تعالى ، فاتجهت إلى ربط شؤونها بغير الله تعالى .

وتوجه آية سورة آل عمران القلوب والنفوس إلى العلم الذى لا تستقيم أحوال الأمة إلا به ، كما تهدى إلى اتباع منهاج الراسخين فى العلم ، ويؤخذ من الآية أن العلم بالمحكم والمتشابه يسد أبواب الفتن ، كما أن تحرى المتشابه ابتغاء الفتنة هو سبيل كل زائغ مريض القلب .

٩ ـ باب الفهم فى كتاب الله تعالى مغلق أمام من أوّله ابتغاء الفتنة :

إن الذين فى قلوبهم زيغ يقصدون المتشابه بغية هدم الدين بزعمهم تناقضه ، أو بغية تأييد مذهب رأوه وتمسكوا به وخرجوا به عن الإجماع بل عن الإسلام .

والابتغاء : الافتعال وتكلف البغى وهو شدة الطلب . وقد تضمنت الآية ابتغاءين وهما : ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، فالتأويل لم يُقصد به هنا وجه الحق بل قصد مخترعو هذا الإفك تطويع آى الذكر الحكيم حسب مرادهم ليوافق ما عندهم من زيغ وضلال ، هؤلاء قد حكَّموا الأوضاع التى تحكمهم فى كلام الله عز وجل ، فبدلا من أن يتخذوا القرآن إماما ، أصبح عندهم مأموماً ، وبدلا من أن يكون متبوعا أصبح عندهم تابعا .هؤلاء الذين تعلقوا بتأويل المتشابه لم يكن تعلقهم حباً فى بيان أو إيضاح ، ولا حبا فى الهداية ، بل حباً فى الشيطان ، وتحصيلا لكل باطل مروج لضلالة هادمة ، أو فساد مدمر ، قد اتخذوا من تأويل المتشابه حرفة وصناعةً ، فالفتنة وجهتهم والتشكيك غايتهم، وإثارة الشبهة شعارهم، والإلحاد

دثارهم . قال ابن قتيبة [١] : « وقد اعترض كتابَ الله بالطعن ملحدون لغَوْا فيه وهجروا واتَّبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول؛ فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سبيله وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغرّ ، واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور .

وأشد هؤلاء خطرا الذين خاضوا فى آيات الصفات وقد تعلّقت الفِرق بهذا النوع من المتشابه ، وكان أخطرهم فى هذا الباب المعتزلة الذين جعلوا معيار التفرقة بين المحكم والمتشابه أدلة العقول « فما وافق ذلك كان محكما ، وما احتمل هذا الوجه وخلافه فهو المتشابه . فأقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه أدلة العقول » [٢] .

وهذا الأصل الذى وضعه المعتزلة لم ينج منه محكم ولا متشابه فاختلطت كتاباتهم وأصبحت لا تهدف إلا إلى نشر مذهبهم وتشنجوا على أصول وقواعد زيَّفت الحقائق العلمية، وأضلت من اغترّ بهم « فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم ، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه » [٣] .

إن من دلائل إعجاز القرآن العظيم أن أهل الزيغ والضلال مهما تطاولوا لايستطيعون أن يدخلوا باب فهمه ولو عمّروا الدهر كله ، بل لا يزدادون إلا خسارا وفى نفس الوقت يجد المؤمن الصادق المخلص جميع الأبواب مفتحة أمامه يلج من أيها شاء حسب قابليته واستعداده.

١٠ ــ المحكم والمتشابه خرجا من مشكاة واحدة :

ليس فى آيات الكتاب المبين ما هو واضح وغامض بل الوضوح والغموض وصف متعلق بالناظر فى كتاب الله تعالى . وهذا أمر نسبى يختلف من فرد إلى آخر .

فالإيمان بمحكمه والإيمان بمتشابهه على حد سواء . ومن آمن بهذا وتوقف فى هذا فقد دخل فيمن قال الله عز وجل فيهم : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ من الآية : ٨٥ سورة البقرة ــ طولى الزهراوين ، سنام القرآن .

ومن فرق بين آيات الكتاب العظيم فى الإيمان بها كان كمن فرق بين الله تعالى ورسله وآمن ببعض وكفر ببعض ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ الآيات : ١٥٠ ــ ١٥٢ سورة النساء .

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ١٧ .

(٢) القاضى عبد الجبار : متشابه القرآن ٧ ، ٨ .

(٣) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل : القسم الأول ٢٧٥ .

وقد أكدت الآيات الأولى من سورة آل عمران هذا المعنى رحمة بالعباد وتحذيراً لهم من اتباع الأهواء فى تأويل آيات الفرقان . ولبيان ذلك نقول :

إن الله الذى لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه، المحيط بجميع أوصاف الكمال ، المنزه عن كل وصف يورث نقصًا، ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده لا شريك له تفرد فى وحدانيته أن يكون له نِدٌّ أو مثل فى أسمائه وصفاته ﴿ الْحَيُّ ﴾ ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ على كل شىء فذرات الموجودات ، وخلايا الأحياء متماسكة فى صورها التى خلقها عليها بإذنه وقدرته ، محفوظة بقيوميته جل جلاله . هو الله الخالق البارئ المصور بديع السماوات والأرض لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ [1] مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ الآية : ٣ سورة سبأ .

صوّر الموجودات : كما صوركم فى الأرحام كيف يشاء وكان ذلك عليه يسيرا . ومن كان هذا وصفه كان هو العزيز الغالب غلبة لا يجد فيها المغلوب فرصة لمدافعة ، ولا انفلات أو هرب . لا معجز له فى إنفاذ شىء من أحكام فى ملكه هو (الحكيم) لشمول علمه وكمال حكمته وتمام الحكم ، واستواء الحكمة ، حسب سعة العلم .

ذلكم الله جل جلاله ﴿ هُوَ ﴾ وحده ﴿ الَّذِى أَنزَلَ ﴾ الكتاب كله ــ عدل عن الفعل (نزّل) لما فيه من معنى النزول منجمًا، والمقام هنا متصل بالكتاب كله ــ ﴿ عَلَيْكَ ﴾ خاصة ــ وعلى حرف يختص بالفوقية فإذا اقترن بالفعل أنزل ونزّل كان خاصا بالأنبياء لا شركة لأحد معهم ــ قصر الخطاب على رسول الله ﷺ لعظيم ما سيلقى بعده من البيان ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ .

فكل الآيات محكمها ومتشابهها صادرة عن أصل واحد لا يمكن فصل آية منه عن آية أو الإيمان بآية وترك أخرى ، وهى فى ترابطها وتكاملها ورد معانى بعضها إلى بعض شىء واحد وهنا ننبه إلى :

ــ افتتاح الآية الكريمة بتأكيد إنزال محكمه ومتشابهه من الله عز وجل .

ــ قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ خاص بهذا الموضع ليس فى القرآن غيره .

ــ اختتمت الآية الكريمة بما يفيد وجود تقديم الإيمان على التأويل ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ .

---

(١) تنبه إلى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم ، إذ كان المعتقد أن أصغر شىء هو الجزىء ثم اكتشف العلماء الذرة وقالوا : إنها لا تنقسم . وتبيَّن لهم فى العصر الحديث أنها تنقسم .

١١ ــ بيان موقف الناس من الكتاب :

بينت آية سورة آل عمران أحوال الخلق بالنسبة إلى تلقيهم لكتاب الله تعالى ، فمنهم أهل الحق الذين لا يتزعزع إيمانهم ، بل إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا . ومنهم أهل الزيغ الذين لا هم لهم سوى تأويل ما تشابه منه ــ وما لهم بذلك من علم ــ ابتغاء الفتنة.

فلينظر المؤمن قوة تلقيه للقرآن العظيم ليعرف مكانة نفسه : فسعادته على قدر قوة يقينه وفهمه فيه وعلمه بما علم . وشقاء أهل الزيغ على قدر إعراضهم عنه وعدم وقوفهم عند حدوده وطلبهم الفتنة بتأويله .

١٢ ــ من هم الراسخون فى العلم ؟ تحديد الآية لهم :

هم الذين جعلوا التنزيل إمامهم والعمل به شعارهم ودثارهم لا يحيدون عنه إذا ضل الناس ، ولا يبتغون به بديلا مهما عُرِض عليهم من مثل وأفكار ونظريات وضعها أهل الدنيا، لا يشكون إذا شك الناس ولا يفرطون فى شىء من الكتاب ، فرحوا بالله تعالى ، وأنِسُوا به عز وجل ، لو اجتمع عليهم أهل الضلال ليزحزحوهم عن الحق شعرة ما استطاعوا ، شعارهم : أحد . أحد . مهما حمى لهم الأعداء من حديد ، أو وضعوا على صدورهم من صخور . أيقنوا بكل وجودهم أن الخير كل الخير فى كتاب الله تعالى ، وبيانه المحمدى وليس وراء ذلك مطلب ، وما بعد الحق إلا الضلال .

وقد ذكر **الراسخون فى العلم** فى القرآن فى موطنين :

أولهما : فى آية سورة آل عمران وقد أفردوا بالذكر لتعلق ذكرهم بالعلم بالمحكم والمتشابه .

والثانى : فى سورة النساء ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ من الآية : ١٦٢ ، وقد ذكر معهم المؤمنون ؛ لأن المعنى متعلق بإيمانهم جميعا بما أنزل من عند الله تعالى .

فاقترن الرسوخ فى الآيتين بالإيمان الذى لا تزلزله شبهة ، ولا يصرفه جهل أو عناد، ولا يشوبه زيغ . ولا يصح ذلك إلا إذا صرف المؤمن جميع شؤونه لله تعالى .

١٣ ــ طريق النجاة هو اتباع منهج الراسخين فى العلم :

للراسخين فى العلم منهج معين فى فهم كلام الله عز وجل : إذ يربطون جميع العلوم ربطا محكما يجعلها وسيلة لمعرفة الله تعالى والتقرب إليه عز وجل . فالعلم لو سخر فى ربط الإنسان بالدنيا كان نقمة وشقاءً بل كارثة ، أما إذا سخر لربط الإنسان بالله تعالى فإنه يكون سببا فى النجاة دنيا وأخرى بإذنه تعالى . وكل علم دل على غير الله تعالى فهو تفكير وضعى دنيوى لا ينتهى دون بوار صاحبه .

وعلامة الرسوخ تقديم الإيمان على التأويل ، والتضرع إلى الله عز وجل طلباً للفتح فى فهم كتابه العزيز ، والراسخون يقولون فيما علموه أو لم يعلموه : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ . ولما كان ثبات الإنسان على سنن الاستقامة من غير عوج أصلاً لم يجريه سبحانه لغير المعصومين الذين اختارهم لتبليغ رسالاته ، لذا التجأ أهل الرسوخ إلى خالقهم ليقيهم الزيغ فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ . ولما كان ما يطلبونه لا ينال بعمل ولا بكسب ، إنما هو بمحض فضله عز وجل قالوا : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ ﴾ من مواهب عطائك المستور من غير خواصك ﴿ رَحْمَةً ﴾ تفضلا منك ابتداءً من غير سبب منا . والتنكير هنا يفيد التعظيم ، والإفادة بأن أيسر شىء منها يكفى الموهوب . ولما كان الأمر اللَّدُنِّى ليس مما فى فِطَر الخلق وجبلاتهم ، وإنما هو هبة منه تعالى بحسب العناية ختموا دعاءهم ملتفتين إلى هذا المعنى ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ الذى يهب أعظم الهبات مرارا وتكرارا من غير قصد من الموهوب ، ولم يكن فهمنا وفقهنا هذا إلا بعد أن وهبتنا النور الذى يهدينا إلى سواء السبيل ، فوقيتنا شر الفتن ، وحفظت قلوبنا من الزيغ ، وأنت الكريم الوهاب اللطيف الحكيم العليم الذى لا ينعم بهذه النعم الجليلة سواك ، ولا يعطيها ويمنحها قبل السؤال إلا أنت .

١٤ ــ لا موضع للفلسفة فى دين الإسلام :

أعلنا مراراً وتكرارا عن عدم وجود (فلسفة إسلامية) نهائيا ، ولا ما يطلق عليه (التفكير الفلسفى فى الإسلام) ، وطالبنا بتصحيح المسميات وضعا للأمور فى نصابها . فينبغى أن توضع هذه الفلسفة تحت عنوان : (الفلسفة عند المسلمين) ، وهذا التفكير تحت عنوان (التفكير الفلسفى عند المسلمين) ؛ ليعفينا ذلك من نسبة الفلسفة للإسلام ونسبة أخطاء فلاسفة المسلمين إلى الإسلام ، والإسلام من أخطائهم براء .

إن الفلسفة تبدأ عند المسلم حينما يجهل الإسلام فيما تفلسف فيه ولو كان عنده علم من الكتاب ما تفلسف : فهى إذن فلسفة تضيق وتتسع بحسب دائرة جهله بأمور الإسلام ، وهى تتناسب تناسبًا عكسيا مع درجة الفقه فى الإسلام . وقد تتَّفق فلسفة المسلم مع أصول الإسلام وقواعده فهى ليست بفلسفة ، وقد تختلف فهى ليست من الإسلام .

وهناك فلسفات وضعها مسلمون وهى أبعد ما تكون عن الإسلام ، واقرأ إن شئت كتب « الملل والنحل » ترى فى ذلك العجب العجاب . وهذا هو ما دعا معظم أئمة أهل السنة إلى التحذير من الاشتغال بالفلسفة ، وأباح البعض ذلك فى حدود الرد على الفلسفات الأجنبية لحماية الأمة من شرورها . ووضعوا شروطا ومواصفات لمن يجوز لهم التصدى لذلك .

وقد ابتلى القرن الرابع عشر الهجرى بمسلمين يريدون أن يلووا ذراع الإسلام ليوافق أهواءهم ، فظهرت أنواع من الفلسفات التى يقال إنها إسلامية وهى فى الواقع تلهث وتجرى وراء تأييد أوضاع فرضت على العالم الإسلامى من الخارج أو يراد فرضها عليه .

وأشدها خطورة الفلسفات الشمولية ، وأخطر الفلسفات الشمولية هى التى لا يعنيها الإسلام ولا العالم الإسلامى إلا بقدر ما يعنيها مركسة الإسلام ، تمهيدا لالتهام العالم الإسلامى كله . وتؤيد هذه الفلسفات الخلايا الشيوعية والمنظمات الإرهابية المنبثة فى جسم الأمة .

وقد ارتبطت هذه الفلسفات ارتباطا محكما بما سموه (حركات التحرير) التى أصبحت حصان طروادة الذى يقتحمون عن طريقه أبواب العالم الإسلامى . وليست هذه الحركات قاصرة على كل بلد مستعمر كما يعطى مدلولها ، بل هى تنشب مخالبها فى بلدان مستقلة تماماً لتحرير الشعوب لا من الاستعمار بل من حكوماتها التى لا تدين بالماركسية . ولذا يعقب نجاح هذه الحركات قيام حكومات ماركسية فى كل مكان أو بلد نجحت فيه . وبالرغم من صيحة تدويل حركات التحرير ، لم نسمع بحركة تحرير قامت بتأييد عملى أو جدى لأكبر جهاد بطولى معاصر ألا وهو جهاد الأبطال الأفغان ضد البربرية الشيوعية ، بل الأمر على العكس لقد أيد الشموليون المسلمون الغزو البربرى السوفيتى للأفغان (١) .

ويتركز خطر هذه الفلسفات الشمولية فى اتهام غيرها بالمروق من الإسلام ويمتد هذا الحكم على من لا يعتقدها ولا يدخل تحت لوائها ، وعلى من يتقاعس عن مساندتها والجهاد فى صفها حتى أصبح الإسلام فى نظر هذه الفلسفات مرادفا لنعرة الشيوعية والشمولية أيا كان مذهبها .

١٥ ــ النهى عن طلب المتشابه ابتغاء اتخاذه قاعدة لإنشاء الفرق والمذاهب المتصادمة مع الإسلام :

وكم من فرقة ارتدت ولم يكن لهذه الردة من سبب سوى استغلال مؤسسيها بالرأى فى فهم معانى القرآن الكريم مما انتهى بهم إلى رفض البدهيات ، والمعلوم من الدين بالضرورة . وقد واجهنا فى القرن الرابع عشر الهجرى أفظع جرائم التزوير التاريخى المقترنة بعمليات تزوير الثقافة ، وطالع أدعياء الثقافة الأمة العربية والإسلامية بمؤلفات تدعى الغيرة على الأمة ولا تتضمن فى الحقيقة سوى شعارات مدمرة تقود الأمة إلى الهاوية ، وكانت صيحات هؤلاء سلاحا ذا حدين ، فهى تبعد الأمة عن الأسباب الحقيقية لتدهورها ، وفى نفس الوقت تفرض أيديولوجيات متعفنة كعلاج لأدواء الأمة وهى فى الواقع تعمل على تدميرها .

١٦ ــ النهى عن الاستقلال بالرأى فى فهم آى الذكر الحكيم :

ولا مكان فى الإسلام لأحد يقول بالرأى ولا علم له بالكتاب والسنة . ومن وجد فى

---

(١) راجع كتابنا : ظاهرة التعتيم فى العالم الثالث .

نفسه أى تقصير فى مادة من مواد قانون التأويل أو علم أنه لم تجتمع عنده الشروط التى اشترطها الأئمة فيمن يتصدى لتفسير آى الذكر الحكيم ، ينبغى عليه ألا يجازف بالخوض فى معانى كلام الله تعالى، ومن فعل ذلك فقد ارتكب زورا وإثما مبينا وافترى على الله سبحانه، ويكون هذا المفترى من الذين أخضعوا معانى القرآن العظيم ومقاصده لأهوائهم بل إن مرتكب هذا الإفك ما آمن بالقرآن العظيم ، إنما هو مؤمن بما صوره له هواه الذى دفعه بعيدا عن الهدى القرآنى المبين .

١٧ ــ المقابلة بين الراسخين فى العلم وبين أهل الزيغ :

الراسخون فى العلم وجهتهم خالقهم ، فهو عز وجل مقصودهم ، ورضاه سبحانه مطلوبهم . أما أهل الزيغ فوجهتهم أهواؤهم ، والضلال غايتهم .

قلوب أهل الرسوخ والتمكين نقية طاهرة صافية ، وقلوب أهل الزيغ غارقة فى ظلمات بعضها فوق بعض ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ من الآية : ٤٠ سورة النور.

أهل الرسوخ قد استمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، فكان الله تعالى مولاهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور. وأهل الزيغ تمسكوا بالطاغوت، فهداهم إلى كل ما يقطعهم عن الخالق سبحانه فتاهوا فى قفار الضلالة لا يعرفون للخروج منها سبيلا .

الراسخون قد وجهوا وجوههم إلى الله تعالى ، وتَبَرَّؤوا من كل سبيل يخالف سبيله عز وجل فكتب الله تعالى لهم الفوز والنجاة فكانوا أولو الألباب الذين ذكرت أوصافهم أواخر سورة آل عمران (١٩٠ ــ ١٩٥) .

تأويل المتشابه بين الإباحة والحظر :

المقصود بالمتشابه هنا هو ما تعلق بالصفات والأفعال المتعلقة به عز وجل . أما المتشابه اللفظى فيدخل فى علوم التفسير ولا خلاف على ذلك ، إنما الاختلاف بين الأئمة وقع بالنسبة للضرب الأول :

قال الإمام الرازى : الذى اختاره الأئمة المحققون من السلف إلى الخلف ، ترك الخوض فى تعيين التأويل بعد إقامة الدليل القاطع على أن حمل اللفظ على ظاهره محال .

وعن الإمام محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء كلهم على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه . وقال ابن الصلاح : على هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامهم .

وذهبت طائفة من أهل السنة إلى تأويل الآيات المتشابهات الواردة فى الصفات بما يليق بجلال الله عز وجل مع تفويض العلم بحقيقتها ، والمراد منها إلى الله تعالى .

آية سورة آل عمران لا يحتج بها فى حظر تأويل المتشابه :

بينت آية سورة آل عمران موقف أهل الزيغ من كتاب الله تعالى ويدخل تحت هذا المسمى : أهل الشرك والكفار والمنافقون والملاحدة ومن على شاكلتهم ، فهؤلاء يقصدون من تأويل المتشابه ، تسخير التنزيل لخدمة مذاهبهم أو أغراضهم الدنيوية كائنة ما كانت .

ومن المحال أن يتساوى الراسخون فى العلم مع أهل الزيغ فى الحكم .

والآية تعطى أن الراسخين لهم نصيب فى العلم بمحكمه ومتشابهه للأمور الآتية :

* أن تفويض العلم بمحكم التنزيل ومتشابهه إلى الله تعالى مطلوب من كل مؤمن ولا فضل فى ذلك للراسخين على غيرهم . وهذا خلاف ما دلت عليه الآية من مدح للراسخين وهو أنهم قد وهبهم الحق تبارك وتعالى الفقه فى كتابه الكريم فكان علمهم بمحكمه ومتشابهه موافقًا للكتاب والسنة ، وهم مع رسوخهم فى العلم يفوضون إلى الله تعالى العلم بكلامه عز وجل .

* أن عدم تعيين الآيات المتشابهات فيه إباحة للتأويل الموافق للكتاب والسنة إذ لا تكليف إلا بأمر معين .

* لو كان الراسخون لا يعلمون شيئاً من متشابهه، فكيف يستطيعون رده إلى محكم .

* ليس فى الآية حظر على من أوتى نصيبا فى فهم ما تشابه منه أن يبينه ، وأن يعلن على العالمين ما فيه من أسرار ودلائل إعجاز .

* لو اتجه الأمر إلى حظر النظر فى تأويل ما تشابه منه مطلقا لما كانت هناك حاجة إلى تخصيص أهل الزيغ بالذكر ، ولَوُصِف كل ناظر فى متشابهه بالزيغ وهذا ما لا تعطيه الآية مطلقاً ، بل هو مخالف لنصها . ولم تلتفت الفاصلة إليه .

* لو كان تفويض العلم بتأويله إلى الله تعالى معناه النهى عن تأويله لكان تأويل المحكم داخل فى ذلك النهى أيضا ، وهذا يتعارض مع النصّ .

* إن الإيمان بأن حقيقة تأويل القرآن لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعنى حظر تأويل متشابهه بقصد بيان ما فيه من أسرار ودلائل إعجاز .

قال ابن قتيبة فى (تأويل مشكل القرآن) :

« ولسنا ممن يزعم أن المتشابه فى القرآن لا يعلمه الراسخون فى العلم . وهذا غلط من تأوليه على اللغة والمعنى ــ ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده ويدل به على أراده » .

والواقع أن المفسرين لم يتوقفوا عن تفسير آية من آيات الذكر الحكيم حتى فسر بعضهم الحروف المقطعة أوائل السور .

* * *

ثانيا : التصنيف فى (المتشابه) قبل الكرمانى وفى عصره

متشابه القرآن الذى صنَّف فيه الأئمة نوعان :

ـ المتشابه اللفظى ويطلق عليه فى علوم القرآن (علم الآيات المتشابهات) أو (علم المتشابه) . وهو من علوم التفسير .

ـ علم المحكم والمتشابه ، ويقصد بالمتشابه هنا آيات الصفات والأفعال وموضع الإفاضة فى هذا العلم هو (علم الكلام) .

وجميع الأئمة الذين صنَّفوا فى المتشابه قبل الكرمانى وبعده راعوا هذا التقسيم وهو الذى سار عليه فيما بعد المصنفون فى علوم القرآن :

فخصص الزركشى فى كتابه (البرهان) [١] النوع الخامس من علوم القرآن العظيم لـ(علم المتشابه) . وأفرد للمحكم والمتشابه نوعا مستقلا من علوم القرآن ، وخصّص الإمام السيوطى فى (الإتقان) [٢] النوع الثالث والستين لـ (الآيات المتشابهات) . وفى كتابه (معترك الأقران) [٣] عنوان للوجه السادس من وجوه الإعجاز بعنوان (مشتبهات آياته) .

وخصص فى (الإتقان)[٤] النوع الثالث والأربعين من علوم القرآن (للمحكم والمتشابه) وفى (معترك الأقران)[٥] جعل عنوان الوجه التاسع من وجوه الإعجاز (انقسامه إلى محكم ومتشابه) .

غلبة التصنيف فى الضرب الثانى من المتشابه المقابل للمحكم :

هناك عوامل أدت إلى غلبة التصنيف فى هذا النوع دون سواه :

منها : أن أهل الفرق يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة بتوجيهه التوجيه الذى يَخدم أفكارهم وأهواءهم ونظرياتهم ، فكان هـؤلاء أشد خطرا على المسلمين من ألدّ خصومهم ، وقد بدأ معسكر أهل الظلام فى الزحف داخل هذه الوجهة منذ القرن الأول للهجرة بظهور السبئية وفرق الخوارج ، ثم أخذت الملل والنحل والفرق تتكاثر ، وأخذ كل فريق يؤول

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١ / ١١٢ .
(٢) الإمام السيوطى : الإتقان ٢ / ١١٤ .
(٣) الإمام السيوطى : معترك الأقران ١ / ٨٥ .
(٤) الإمام السيوطى : الإتقان ٢ / ٢ .
(٥) الإمام السيوطى : معترك الأقران ١ / ١٣٦ .

الكتاب تأويلا يوافق مذهبه . ولما كانت هذه الفرق ذات أصل سياسى فقد امتزج التأويل بالعمل السياسى والصراع على السلطة والنحل ، واشتد هذا النوع من الفكر حتى بلغ ذروته فى القرنين الرابع والخامس من الهجرة ، وأخذت الفرق الضالة والمارقة تلعب دورا خطيرا فى التاريخ الإسلامى ، وتدخلت فى تحديد شروط الخلافة والإمامة بل وشروط الإسلام ، ومن هذه الفرق : القرامطة والباطنية وغلاة الشيعة ، بل تأسست الدولة الفاطمية فى تونس والخلافة الفاطمية فى القاهرة على أساس الدعوة الباطنية التى بلغت فى تنظيم الكوادر السرية مبلغا يشبه ما تقوم به الدعوات الشمولية فى التاريخ الحديث ، وكان الإرهاب أهم عنصر من عناصرها ، فكثرت الاغتيالات التى تهدف إلى التخلص من قادة الأمة وزعمائها .

* ووجدت بعض الفرق أن احتواء الحكام هو أسهل الطرق لتسخير السلطة فى خدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم وحماية أتباعهم والفتك بخصومهم ، فحققوا عن طريق هذا الأسلوب ما لا يحلمون بتحقيقه .

* واتخذت بعض الفرق من الغزو الثقافى وسيلة لنشر أفكارهم وبثها بين المثقفين فكان لهم النشاط الوافر فى عالم التأليف [1] ليتمكنوا عن طريق مصنفاتهم من درس أفكارهم وتغطية الحقائق وتعمية القضايا على الجهلة فوقع فى شباكهم من لا خبرة له ولا دراية فى عالم الفكر .

* والتجأت بعض الفرق إلى التزوير العلمى واتخذوا من الدس والتدليس والوضع والافتراء وسيلة لتشكيك الأمة فى أئمتها وقادتها .

* لم تستنكف بعض الفرق من الاستعانة بألد الأعداء لغزو أوطانهم .

واستدعى انتشار الزنادقة والملاحدة ومن فى حكمهم : استدعى ذلك مواجهتهم رسميًا وعلميًا للحفاظ على الشريعة ووقاية الأمة من كل مفسد وسنافق عليم اللسان .

وانبرى الأئمة لهؤلاء فكشفوا عن زيفهم وهدموا معاقل باطلهم على رؤوسهم . وأتوا على بنيانهم من القواعد . ونذكر سنهم من أهل القرن الرابع الهجرى :

أبو الحسن الأشعرى (ت ٣٣٣ هـ) .

أبو منصور الماتريدى (من محلة ماتريد بسمرقند) (ت ٣٣٣ هـ) .

أبو بكر القطيعى (ت ٣٦٨ هـ) .

---

(١) راجع : الفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر بن طاهر البغدادى (ت ٤٢٩ هـ) . والفصل فى الملل والأهواء والنحل للإمام الظاهرى على بن حزم (ت ٤٥٦ هـ). والملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستانى (ت ٥٤٩ هـ) وغيرها .

أبو الحسن محمد بن أحمد الملطى الشافعى (ت ٣٣٧ هـ) .

الخطابى (ت ٣٣٨ هـ).

تفوق المشرق العجمى العباسى فى التصنيف فى المتشابه بنوعيه :

من اطلع على كتب الملل[١] والنحل يجد أن المشرق العباسى كان مركز الثقل فى الرد على الفرق المارقة، وبالتالى فى التصنيف فى المتشابه بجميع أنواعه، والسبب فى هذا التفوق:

* أن شعوب هذه المنطقة لغتها غير عربية مما يجعلها لقمة سائغة لأصحاب الدعوات الهدامة من أهل الفرق ، فمن السهل ترويج الفتن هنا .

* أن الطامعين فى تجريد الخلافة من سلطانها لا يجدون منطقة يستندون إليها خيرا من هذه المنطقة ، حتى انتهى الأمر إلى سقوط الخلافة صريعة بين براثن المتغلبين الذين جردوها من كل سلطة ، وحولوها إلى مجرد رمز .

* أن أعداء الخلافة العباسية ــ وعلى رأسهم الفاطميون فى مصر ــ اتخذوا من خراسان وفارس مراكز وثوب ومحاور هجوم تهدد الخلافة العباسية. وكان الخلفاء العباسيون يستنجدون بالمتغلبين على الولايات الإسلامية لإنقاذ الخلافة من هؤلاء الخصوم . وانبرى لمواجهة ذلك أئمة من المشرق دافعوا عن الحق وحاربوا أهل الباطل حتى تبين أن زعماء الفتن إنما يدعون إلى سراب يحسبه الظمآن ماءً فإذا جاءه لم يجده شيئا . وكان من بين أئمة أهل السنة من غلب عليه الأثر، ومنهم من غلب عليه النظر ، وسنهم من جمع بينهما فأجاد وأفاد، ومن بينهم فى القرن الخامس الهجرى :

ــ الحسين بن الحسن الحليمى البخارى الشافعى (٣٣٨ ــ ٤٠٣ هـ) .

ــ ابن فورك محمد بن الحسن بن فورك الأصبهانى الشافعى (ت ٤٠٦ هـ) وله (حل الآيات المتشابهات) [٢] و (تأويل أحاديث الصفات) وقد أخذ عليه أنه جمع فيه الصحيح والواهى ، ولو حرره لكان أضبط ، كما صنف فى الرد على الكرامية وما زالوا به حتى تمكنوا من دس السم له .

ــ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراينى نسبة إلى إسفرايين بلدة نواحى نيسابور خراسان ، (ت ٤١٨ هـ) له (الجامع فى أصول الدين والرد على الملحدين) فى خمس مجلدات .

---

(١) صرفنا النظر عن ذكر مصنفات الفِرَق المنحرفة عن مذهب أهل السنة فى المتشابه. ومحل ذلك كتب النحل.

(٢) توجد منه نسخة فى خزانة « عاطف » بإستنبول تحت رقم ٤٣٣ ص ٥١٥ ، وتقع فى ٧٤ ورقة .

ـ عبد القاهر بن طاهر البغدادى نشأ ببغداد ورحل إلى نيسابور ، ثم بارحها عقب فتنة مذهبية إلى إسفرايين (ت ٤٢٩ هـ) . له (تأويل متشابه الأخبار) و (الفرق بين الفرق) و(فضائح الكرامية) و (كتاب الصفات) وله مصنف فى الملل والنحل .

ـ الإمام عبد الله بن يوسف الجوينى (والد إمام الحرمين ت ٤٣٨ هـ) وينسب إلى جوين مدينة ناحية نيسابور له رسالة فى (تنزيه البارى عز وجل عن الحصر والتمثيل والفوقية) وهى مطبوعة ضمن الرسائل المنيرية سنة ١٣٤٣ هـ .

ـ الحافظ البيهقى : أحمد بن الحسين بن على النيسابورى (ت ٤٥٨ هـ) أجل مصنفاته فى المتشابه (الأسماء والصفات) سعى فيه إلى استقصاء ما ورد فى كل باب من الأحاديث مع بيان درجة كل حديث حماية للأمة من الروايات الموضوعة التى يجب ردها . ورجع فيه فيما يختص بعلم الكلام إلى أئمة هذا العلم . كما ألَّف فى دلائل النبوة .

ـ أبو يعلى الفراء الحنبلى (٣٨٠ ـ ٤٥٨ هـ) له رسائل فى الرد على الكرامية ، السالمية ، المجسمة ، ولكنه اختلف مع الأشعرية وألف فى الرد عليهم ، وله (إبطال التأويلات لأخبار الصفات) .

ـ إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ) له (الشامل فى أصول الدين) و (لمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة) و (الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد) .

ـ شيخ الإسلام عبد الله الأنصارى الهروى (٣٩٦ ـ ٤٨١ هـ) شيخ خراسان كان سيفا على المبتدعة والفرق الخارجة عن أصول الدين ، وله كتاب (الفاروق فى الصفات) و(القدرية) و (تكفير الجهمية) .

ـ حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) له (تنزيه القرآن عن المطاعن) ط مصر ١٣٢٩ ، (تهافت الفلاسفة) طبع عدة طبعات كما اهتم بتحقيقه المستشرقون . (الرد الجميل) وقد نشره مجمع البحوث الإسلامية الأزهرى ، (شفاء العليل) نشرته وزارة الأوقاف ببغداد سنة ١٩٧٠ ، (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) ط . ليدن سنة ١٩١٦ والقاهرة سنة ١٩٦٤ ، (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) القاهرة ١٣١٩ وما بعدها . (مقاصد الفلاسفة) ط . القاهرة ١٣٣١ هـ ، (المنقذ من الضلال) له عدة طبعات وتحقيقات. وكثرت المؤلفات فى هذا النوع من المتشابه منذ بدء ظهور الفِرَق الإسلامية حتى صرف لفظ المتشابه إليه .

المصنفون فى المتشابه اللفظى قبل الكرمانى والمعاصرون له :

أقدم من أفرد المتشابه اللفظى بالتصنيف : هم أئمة القراءات الذين غلب عليهم تخصصهم فلم يحاولوا إماطة اللثام عن أسرار المتشابه ومنهم :

ـ الإمام حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٥٨ هـ) .

ـ الإمام نافع بن عبد الرحمن (ت ١٧٠ هـ) .

ـ الإمام على بن حمزة الكسائى[١] (ت ١٨٩ هـ) .

وهم من القراء السبعة .

ومن القراء العشرة :

ـ الإمام خلف بن هشام الأزدى البزار (ت ٢٢٩ هـ) .

أما التأليف فيه بمعناه العلمى فأقدم مصنف وصلنا من هذا النوع هو مؤلف الخطيب الرازى المشهور بالإسكافى [٢] (درة التنزيل وغرّة التأويل) ويقول فى خطبة هذا المصنَّف ما يفهم منه أنه لم يعثر على مؤلف أفرد هذا النوع من المتشابه بالتأليف « كيف ولم يقرع بابها ولم يفتر لهم عن نابها ولم يُسْفر عن وجهها ففتقت من أكمام المعانى ما أوقع فرقانا ، وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانا ،ولطعن الجاحدين ردًا ولمسلك الملحدين سدًا »[٣] .

وممن أفرد المتشابه بالتأليف من معاصرى الكرمانى :

الراغب الأصفهانى : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل [٤] (ت ٥٠٢ هـ) له (درة التأويل فى متشابه التنزيل) . وله فى التفسير (تحقيق البيان فى تأويل القرآن) وهو

---

(١) اسم مصنَّفه (ما تشابه من ألفاظ القرآن وتناظر من كلمات الفرقان) وتوجد منه نسخة فى مكتبة « قوله» أشرنا إليها فى المراجع ، ونسخة فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٦٦٥ ، تحت عنوان (مشتبهات القرآن) ونسخة ميكروفيلم فى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية : تفسير رقم ٢٤٠ ، وتقع فى ٨٠ ورقة، وقد اكتفى المصنف بجمع الآيات المتشابهات من حيث اللفظ بحسب ترتيب السور ولم يتعرض لأسرار المتشابه ، وبيان فروقه الدقيقة .

(٢) هو الإمام محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الرازى الشهير بالإسكافى الأصفهانى . عرف بالخطيب لتوليه الخطابة بالرى زمانا وسبقت ترجمته . وكتابه فى المتشابه هو أساس كتاب الإمام أحمد بن إبراهيم ابن الزبير العاصمى الثقفى الغرناطى (٦٢٧ ـ ٧٠٨ هـ) ولكن كتاب ابن الزبير « ملاك التأويل » فيه إضافات زادت عما فى (درة التنزيل) بنحو من مائة آية .

٣) درة التنزيل : ٨ .

(٤) ترجمه السيوطى فى « بغية الوعاة » باسم (المفضل بن محمد الأصبهانى الراغب) ونفى عنه تهمة الاعتزال، وقرر أنه من أهل السنة .

صاحب الكتاب المشهور (المفردات فى غريب القرآن) . إلا أن الكرمانى لم يشر إليه فى تصنيفه بينما هو يشير إلى من نقل عنهم وخاصة الخطيب الإسكافى .

* * *

ثالثا : مقاصد التصنيف فى علم المتشابه بنوعيه

١ ــ سد فراغ كبير فى علوم وجوه إعجاز القرآن بالتصنيف فى علم عزيز منها قلّ من صنفوا فيه لصعوبة مرتقاه وقلة من يدرك أسراره ، شأنه شأن علوم المناسبات التى لا نقول فقط: إن التصنيف قد عزّ فيها، بل كاد أن ينعدم وجود من يفهم ما تعالجه من الموضوعات. والتفسير الوحيد الذى وصلنا فى المناسبات هو تفسير الإمام البقاعى (نظم الدرر) ومع نفاسته وندرة منهجه تأخر نشره حتى تولت شرف هذه المهمة دائرة المعارف العثمانية فى حيدر آباد الدكن بالهند ، وبدأ صدور أول أجزائه سنة ١٣٨٩ هـ وفى نهاية ١٤٠٠ هـ صدر الجزء السادس عشر (نهاية سورة الزمر أو أول الجزء الرابع والعشرين من القرآن الكريم). وقمنا بالمساهمة فى هذا الشرف فسبقنا دائرة المعارف العثمانية بتحقيق الجزء الثلاثين من القرآن الكريم وهو جزء عمَّ. وقد تسلمت أصوله دار الكتب والوثائق القومية ـ إدارة تحقيق التراث ـ لنشره منذ سنوات .

٢ ــ تنبيه الغافلين على ما فاتهم من تدبر أسرار القرآن العظيم وعلومه ليزداد المؤمنون إيمانا مع إيمانهم .

٣ ــ إبراز المعانى التى اقتضت تغاير الآيات المتشابهات ، وبيان مناسبة كل حرف أو لفظ أو نظم اقتضى مغايرة الآية التى جاء فيها لنظيرتها ، وحكمة اختصاصه بها دون سواها.

٤ ــ ردع الملاحدة وأهل الزيغ الذين يجازفون فى الكلام على آيات الله تعالى بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وهؤلاء الذين يمتطون الشبهات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وهم لا يفقهون حديثا فى شىء من أسرار كتاب الله عز وجل .

٥ ــ فتح الباب على مصراعيه لكل من توافرت فيه الشروط اللازمة لإثراء هذا العلم النفيس بإضافات جديدة لها وزنها العلمى .

والمقاصد التى ذكرناها عامة لكنها بالمتشابه اللفظى ألصق فهو موضوع البحث . أما المتشابه المعنوى فله مقاصد أخر علاوة على هذه مثل الرد على الفرق ، وما أكثرها وأكثر شبهها ، وبيان العقيدة المنجية برد المتشابه إلى المحكم وهو ما عالجه علم التوحيد وعلم الكلام وليس هذا مكان الكلام عليه .

وننبه هنا إلى أن علوم الإعجاز (١) هى فى حقيقة الأمر العلوم الأساسية للدعوة ولا غنى عنها فى كل مجال يراد فيه تجلية عظمة كتاب الله تعالى للعالمين ، وما أودع فيه من أسرار الإعجاز ، وهذه العلوم بعضها تفصيلى وبعضها إجمالى بالنسبة لدلائل الإعجاز فهى ضرورية إذن للعرب ولغيرهم . والعجيب أن هذه العلوم تكاد تندثر ، وخلت الجامعات الإسلامية حاليا من إنشاء أقسام متخصصة لرعاية هذه العلوم ، وهى فى الواقع علوم الدعوة الأساسية . خاصة وأن الحاجة إلى هذه العلوم لم تشتد كما حدث فى عصرنا هذا .

ولعل مرجع خلو خطط الدراسة منها يرجع إلى :

* عدم كفاية ما وصلنا من كتب التراث التى تعالج هذه العلوم النادرة .

* مع قلة ما وصلنا منها لم يجد هذا القليل العناية اللازمة لنشره .

* اشتملت المصنفات فى علوم القرآن العظيم على مواد مبعثرة من هذه العلوم وتحتاج إلى جهد ليس بالهين لجمعها ، وهو جهد تنوء بحمله الأجيال ، وهو أشبه بالجهد المطلوب لإنشاء دوائر معارف فى كافة فروع المعرفة التى تحملها المصنفات العربية والإسلامية . ولم يبذل فى هذا الصدد جهد يذكر أو يشكر .

* والأهم من هذا كله عدم وجود وتوافر الراسخين فى هذه العلوم فى العالم الإسلامى مما يجعل القيام بهذه المهمة متعذرا .

* * *

رابعاً : منهج الكرمانى فى التصنيف

اتخذ الكرمانى من التصنيف فى المتشابه سلما لبيان دلائل الإعجاز ومدخلا موصلا إلى هذه الغاية الرئيسية التى لم تغب عنه طوال مادة الكتاب . وهذا المسلك قل من يستطيع أن يسلكه من الأئمة الأعلام فضلا عن غيرهم « فإن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا فى تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرها ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها وهو المشكل الذى لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه » (٢) وقد برّ الكرمانى بوعده فاشتغل بذكر الوجوه والعلل والفروق التى تطلبت وجوه الاختلاف . ولم يشتغل بالتفسير أو التأويل إلا بقدر اتصال ذلك بتوجيه المتشابه إلى هذه الغاية . والكرمانى يمنع وجود التكرار المطلق . وكل ما وقع من ألفاظ مشتركة بين اثنين أو أكثر فإن اللفظ المشترك فى كل آية يفيد معنى غير الذى يفيده فى الآية الأخرى ، مما يحول دون القول بالتكرار . هذا وقد بين فى

---

(١) كلما ذكرنا علوم الإعجاز فإنما نقصد فى الحقيقة علوم وجوه الإعجاز .

(٢) مقدمة كتاب البرهان وجه ١ / ب .

حالات أنواع التشابه الآخرى العلة والحكمة فى تخصيص كل آية بما جاء فيها دون الآية المناظرة لها من حيث الزيادة أو الحذف أو التقديم أو التأخير أو إبدال حرف بحرف أو كلمة بكلمة ، مثبتاً أن ما فى هذه الآية لا يصلح أن يكون فى الأخرى مع ذكر الأسباب التى اقتضت ذلك سواء ما رجع منها إلى النظم أو إلى المعنى أو إلى القراءات أو اللغة أو إلى أى سبب آخر غيرها .

ومن أنواع المتشابه الذى تناولها فى مصنفه وقد عدها فى مقدمة الكتاب :

* التكرار اللفظى : وهو فى الحقيقة ليس بتكرار .

* التقديم والتأخير : مثال ذلك [١] قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الأعراف من الآية : ١٨٨ . وفى سورة يونس : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الآية : ٤٩ . ثم يحاول وضع قاعدة عامة فى ترتيب لفظى النفع والضر فى حالة اجتماعهما فى آية ، ثم يذكر الحالات الخاصة التى تستوجب تقديم ذكر الضر على النفع .

* الزيادة والحذف :

وفى سورة الأنبياء ــ فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام ــ قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِين ﴾ الآيتان: ٥٢ ، ٥٣ .

وفى سورة الشعراء ــ فى قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ــ قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ الآيات : ٧٠ ــ ٧٤ .

قال الكرمانى [٢] : « قوله تعالى فى هذه السورة ــ يعنى سورة الأنبياء ــ : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا ﴾ وفى الشعراء ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ﴾ بزيادة ﴿بَلْ﴾ : لأن قوله: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا ﴾ جواب لقوله : ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ . وفى الشعراء قد أجابوا عن قوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بقولهم : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ﴾ . ثم قال لهم : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ : فأتى بصورة الاستفهام ومعناه النفى ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ﴾ : أى ﴿ قَالُوا ﴾ « لا » ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا ﴾ ؛ لأن السؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أن ينفوا ما نفاه السائل. فأضربوا عنه إضراب من ينفى الأول ويثبت الثانى، فقالوا : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا ﴾ : فخصت السورة به .

---

(١) البرهان : النسخ الأصلية وجه ٧ / أ .

(٢) النسخة الام وجه ٣٣ / أ .

* إبدال حرف مكان حرف :

راجع ما ذكره الكرمانى[١] فى سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من الآية : ٣٥ ، وفى سورة الأعراف : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من الآية : ١٩ .

* إبدال كلمة بأخرى :

راجع ما ذكره الكرمانى[٢] فى سورة البقرة عند قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ من الآية : ٦٠، وفى سورة الأعراف : ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ من الآية : ١٦٠ .

وراجع ما ذكره[٣] فى سورة الكهف عند قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ من الآية : ٣٦ ، وفى سورة فصلت : ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ من الآية : ٥٠ .

والكرمانى فى مقدمة الكتاب لم يذكر جميع ما تضمنه مصنفه من أنواع المتشابه ، بل ذكر البعض ، ثم عمم فى الإشارة إلى أنواع أخرى تضمنها الكتاب غير ما ذكره فى المقدمة ومن هذه الأنواع :

* مجىء الكلام فى موضع على نظم وفى آخر على عكسه :

راجع ما ذكره الكرمانى[٤] فى سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ من الآية: ٥٨ ، وفى الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ من الآية : ١٦١ .

وفى الآيتين علاوة على ذلك من أنواع المتشابه إبدال حرف مكان حرف ، والزيادة والحذف .

* اللفظ يأتى معرفا فى آية ونكرة فى أخرى :

راجع ما ذكره الكرمانى[٥] عند قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ من الآية: ٦١، وفى سورة آل عمران: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ من الآية: ٢١، وفى سورتى آل عمران والنساء: ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ من الآيتين: ١٨١، ١٥٥ على التوالى.

(١ ، ٢) النسخة الأم الأوجه : ٤ / أ ، ٤ / ب .
(٣) النسخة الأم وجه ٣٠ / ب .
(٤) النسخة الأم وجه ٤ / ب .
(٥) النسخة الأم الأوجه ٥ / أ ، ٥ / ب .

* مجيء اللفظ جمعا فى آية ومفردا فى آية أخرى :

راجع ما ذكره الكرمانى(١) عند قوله تعالى فى سنام القرآن : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ من الآية : ٨٠ ، وفى سورة آل عمران ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ من الآية : ٢٤ .

* الفك والإدغام :

راجع ما ذكره المصنِّف(٢) عند قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ من الآية: ١١٥ ، وكذلك فى سورة الأنفال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ﴾ من الآية : ١٣ ، فجاء فعل يشاقق بالإظهار والفك . وجاء بالإدغام فى سورة الحشر : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ من الآية : ٤ .

الأئمة وحصر أنواع المتشابه :

كل محاولة لحصر أنواع المتشابه إنما هى محاولة اجتهادية جاءت ثمرة الاطلاع على مصنفات الأئمة فى المتشابه أو كلامهم عنه فى كتب التفسير ، وقد يضيف صاحب المحاولة أنواعا لم يذكرها غيره ، أى أن بيان أنواع المتشابه إنما يقوم على الأمر الواقع لا على أساس تعيين المتشابه ثم حصر أنواعه، وسبق أن أشرنا إلى أن المتشابه غير محصور فى آيات معينة .

وقد حاول أحد معاصرى الكرمانى وضع تقسيم دقيق للمتشابه معتمدا فى ذلك على استقراء ما وصله فى هذا الشأن . وهذا الإمام هو الراغب الأصبهانى(٣) وذلك فى مصنفه المشهور (المفردات فى غريب القرآن) . وقال عقب عرض هذا التقسيم : « إن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم »(٤) .

واعتنت مصنفات علوم القرآن فيما بعد بسرد أنواعه ، فأفرد الزركشى(٥) خمسة عشر فصلا من كتابه (البرهان فى علوم القرآن) لبيان أنواع المتشابه . واكتفى الإمام السيوطى فى كتابيه (الإتقان) و (معترك الأقران) بذكر أمثلة تبين أنواعه .

هذا ، وكلما أثرى التصنيف فى المتشابه كلما أضيفت إليه أنواع جديدة بقدر ما أوتى المصنفون من عمق فى المعرفة فى هذا العلم العزيز .

---

(١) النسخة الأم الأوجه ٥ / أ ، ٥ / ب . (٢) النسخة الأم وجه ١٠ / ب .

(٣) هو الإمام الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهانى (أو الأصفهانى) المعروف بالراغب (ت ٥٠٢ هـ) ومن مؤلفاته « جامع التفاسير » و « حل متشابهات القرآن » و « المفردات فى غريب القرآن » ط . و«محاضرات الأدباء » ط .

(٤) المفردات فى غريب القرآن .

(٥) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١ / ١١٢ ــ ١٥٣ .

منهج الكرمانى فى تبويب الكتاب :

سار الكرمانى على منهج المفسرين : وهو المنهج الذى يبدأ من أول القرآن العظيم إلى آخره .

وهناك منهج آخر لم يسر عليه أحد حتى الآن وهو التصنيف فى المتشابه بحسب الأنواع. ومن أكبر العوائق التى تعترض هذا التبويب :

* ندرة المصنفات التى وصلتنا فى المتشابه اللفظى .

* أن هذا التبويب يحتاج إلى مراجعة دقيقة لكل ما وصلنا عن المتشابه فى كتب التفسير لاستخلاص ما كتب فيه ، وهو عمل لا يمكن أن يستقل به فرد مهما أوتى من كفاية علمية ، بل يحسن أن تتضافر جميع مؤسسات علوم القرآن فى العالم العربى على تنسيق العمل فيما بينها للقيام به ، لتضيف إلى المكتبة الإسلامية مصنفا من أقوى المصنفات فى دلائل الإعجاز .

خطة الكرمانى فى تنفيذ منهجه :

* تتبع الكرمانى كل ما أراد توجيهه من الآيات المتشابهات فى القرآن العظيم مراعيًا ترتيب التلاوة ، سورة سورة ، وآية آية .

* فيذكر السورة ثم يتناول ما فيها من الآيات المتشابهات مرتبة حسب ترتيب التلاوة . حتى إذا ما انتهى من السورة انتقل إلى السورة التى تليها .

* ثم يذكر الآية الأم ويلحق بها ما يشبهها من الآيات من نفس السورة ، ومن باقى السور بطريقة استقرائية دقيقة ، ثم يبين أسرار اختصاص كل منها بما جاء فيها من متشابه .

* إذا كانت الآية قد سبق توجيه ما فيها من المتشابه فى موضع آخر ، أشار إلى ذلك بقوله : « قد سبق » دون أن يتعرض لها ، ويؤخذ عليه أنه لم يشر إلى الموضع ليسهل الاستدلال عليه ، وقد استدركنا عليه ذلك ، فحددنا الموضع وأشرنا إليه فى الحاشية .

المجهود العلمى الذى بذله الكرمانى فى توجيه المتشابه :

تلمس فى جميع توجيهاته للمتشابه مقدار ما بذله من جهد صادق يكِلّ عن بذله الجهابذة ، ومصادره فى ذلك جدّ متنوعة :

وهو أولا يعتمد اعتمادا تاما على علوم القرآن الكريم ومن أهمها علم المناسبات : فيستنبط توجيهه من سياق الآيات ، أو يرجع إلى أسباب النزول ، أو علوم القراءات ــ وهو إمام فيها ــ وهذه العلوم من أهم ما استعان به على توجيه الآيات المتشابهة لفظاً وبيان حكمة اختصاص كل آية بما جاء فيها مختلفا عن الآية المشابهة لها .

ويرتبط الكثير من توجيهاته بعلوم اللغة فيوضح الاستعمالات اللغوية للكلمة ، ويعتمد على التحليل اللغوى ، وهو تحليل يدل على رسوخه فى هذا الصدد. وأحيانا يعلل توجيهاته بالقواعد النحوية ويحتكم فى ذلك إلى أئمة النحو وخاصة سيبويه فى مؤلفه المشهور فى هذا العلم ، واسمه (الكتاب) .

ويعالج أثناء ذلك فنون الكلام من تقديم أو تأخير أو حذف ، وكثيرًا ما علل توجيهاته بالإيجاز فى مواضع والإطناب فى أخرى . والإظهار أو الإضْمَار أو التَّصريح أو التلميح تارة أخرى .

وهو يستشهد بأقوال أئمة التفسير كلما استدعى الأمر ذكر أقوالهم .

وقد سبقت الإشارة إلى طائفة من المصادر التى يكثر رجوعه إليها فى مصنفاته فى التفسير(١) . وللكرمانى مقدرة فائقة على استحضار آيات القرآن الكريم ووجوه قراءاتها ، بل استحضار اللفظة القرآنية فى جميع الآيات التى ذكرت فيها وكأنه يطالع معجمًا مفهرسًا لألفاظ القرآن الكريم وآياته وقراءاته . ولا غرو فقد كان هو نفسه معجماً حيا يوجه هذه الطاقة إلى المواطن التى تتطلبها فتساعفه فى كل ما يطلبه ، فجاء ذلك مفسّراً لوصف ياقوت له من أنه « كان عجيبا فى دِقَّة الفهم وحسن الاستنباط » وتداول الحفاظ والمؤرخون هذه العبارة ، إقراراً منهم بانطباقها تمام الانطباق على صاحبها . ولقد يستقصى اللفظ من الآية فى جميع القرآن فيذكر الآيات التى جاء فيها هذا اللفظ أو يتتبع لفظتين من آية فيقول أحيانا: «ليس فى القرآن غيره » ولا يستدرك عليه أحد شيئا ، وهذه موهبة قلَّ من حازها .

وكأن الكرمانى قد أوتى حاسة سادسة تجعله يقف على أسرار المتشابه اللفظى ، ويعرف مواطن الحكمة فى تخصيص كل آية بما يناسبها بحيث لا يصلح استبدال حرف أو لفظ أو زيادة ذلك أو حذفه فى آية بما فى الآية المناظرة لها .

والكرمانى يلتزم فى مصنفاته عزو كل قول إلى صاحبه ، وهذا الالتزام إن تباعد فى كتاب (البرهان) فذلك لأنه كتاب ابتكار وأصالة ، أما فى باقى مصنفاته فى علوم القرآن مثل تفسير (اللباب) وكتاب (غرائب التفسير) فهو يبدأ بعرض أقوال من سبقوه ثم يعلق عليها مؤيداً أو مستدركا أو معارضا أو مناقشا . هذا وإن قلّت تعليقاته فى المصنف الثانى فلأنه قصد منه سرد الغرائب والعجائب التى عثر عليها فى تفاسير من سبقوه . وأهم مصنف نال تقديره فى كتابه (البرهان) هو كتاب (درة التنزيل) للخطيب الإسكافى ، ويتبين هذا الإعجاب واضحًا فى تخصيصه بالنقل عنه أكثر من غيره ، وكما قلنا : إن (درة التنزيل) هو المؤلف العلمى الوحيد الذى وصلنا من كتب التراث مفرداً المتشابه اللفظى بالتأليف .

---

(١) راجع المقدمة .

* والبحث عن الأقوال التى انفرد بها أصحابها يجرى من الكرمانى مجرى الدم ؛ ولذا أفرد (غرائب التفسير) بمصنف مستقل جاء فيه بكل عجيب قيل فى التفسير ، مما جعله هدفًا لنقد الإمام السيوطى ؛ إذ لا يجوز لمن كان فى مكانته أن ينقل الشاذ من أقوال المفسرين لمجرد كونه من غرائب التأويل ، فعالم التفسير ليس فى حاجة إلى مزيد من العجائب والغرائب ، بل وهو فى أمس الحاجة إلى باقعة يغوص ليستخرج لآلئه وجواهره .

وعذر الكرمانى فى كتاب (الغرائب) أنه حدد وظيفته فى هذا الكتاب بأنه ناقل لا ناقد، فلا غبار على قيامه بهذا الدور من وجهة نظره .

أسلوبه :

وأسلوب الكرمانى أشبه بأسلوب [البرقيات] : مختصر ولكنه واضح فى معظمه ؛ وهو فى هذا المجال قد أوتى ملكة أداء المعنى بأخصر عبارة ممكنة ، وكأن قاعدة (خير الكلام ما قل ودل) قد وضعت وصفًا لأدائه ، ولا غرو ؛ فإن طول مصاحبته للقرآن العظيم ليل نهار قد أكسبه هذه الملكة النادرة .

* * *

خامساً : أثر الكرمانى فيمن صنفوا بعده فى المتشابه اللفظى

لا أدل على عمق أثر الكرمانى فيمن تناولوا المتشابه من بعده من مواقف هؤلاء الأئمة من كتابه (البرهان) الذى بين أيدينا . ونبسط مواقفهم منه فيما يلى :

* بعض الأئمة استبطن كتاب (البرهان) كما هو ، ولا يخفى أن الاستبطان الأمين الكامل الخالى من أى تلاعب يجعل النص المستبطن ــ بفتح الطاء ــ فى عداد النسخ الخطية لكتاب (البرهان) بغض النظر عن طريقة الاستبطان .

وللاستبطان الكامل طريقتان :

الأولى : أن يستبطن أحد المؤلفات ضمن المصنَّف الأصلى كباب من أبوابه .

الثانية : أن ينجم الكتاب المستبطن على أبواب المصنَّف الأصلى كما سنراه .

* احتواه البعض الآخر فى مصنفاتهم مع التصرف الكثير أو القليل فى بعض العبارات وترك الباقى على ما هو عليه .

* استعان به آخرون كمصدر ونقلوا ما نقلوه عنه دون تغيير أو تبديل فى كثير من الأحيان ، وبشىء من التصرف أحيانًا .

ولبيان ذلك نقول :

استبطان الفيروزآبادى [١] لكتاب (البرهان) :

تقدمت وفاة (الكرمانى) على وفاة (الفيروزآبادى) بثلاثة قرون ، إلا أن هناك أسبابًا قوية جعلت الفيروزآبادى على علم تام بآثار الكرمانى العلمية منها :

أن الفيروزابادى ولد فى بلدة (كارزين)[٢] جنوب شيراز فى فارس وهى الولاية الملاصقة لولاية كرمان من جهة الغرب وكان والد الفيروزآبادى من علماء اللغة والأدب فى شيراز . كما تلقى ابنه العلم فى هذه العاصمة ومكث بها حتى (سنة ٧٤٥ هـ) ، ثم انتقل إلى واسط حيث تلقى بها القراءات العشر ورحل منها إلى بغداد . وفى شيراز استطاع الفيروزآبادى أن يطلع على مؤلفات الكرمانى ، ومؤلفات أخلص تلامذته الإمام نصر بن على الشيرازى (توفى بعد سنة ٥٨٧ هـ) . ونجزم بأن الفيروزآبادى قد اطلع فى شيراز على عدة نسخ من كتاب (البرهان) الذى كان متداولا لدى العلماء وموجودا فى مكتبات شيراز، وإذا أضفنا إلى ذلك: أن الفيروزآبادى كان من صغره مغرمًا بالورّاقين وهم أشبه بدور النشر الآن، كما كان مغرما بنسخ الكتب مما يدل على شدة تعلقه بالعلم لما فى نَسْخ الكتب من مشقات لا يطيقها إلا النساخ ، كما كان قوىّ الحفظ ويذكر عن نفسه أنه كان لا ينام حتى يحفظ مائتى سطر .

فإما أنه عثر على نسخة من نسخ كتاب (البرهان) عند أحد الوراقين فحصل عليها ، وإما أنه كلف أحد الورّاقين بنسخها له ، وإما أنه قد ساعفه الحظ فعثر فى مكتبات شيراز على نسخة بخط الكرمانى نفسه ونقلها ، ومن شدة تعلقه بهذا الكتاب ، وَثَبَتْ إليه فكرة استبطانه عندما قام بتصنيف كتابه المشهور (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز)[٣] وفى الجزء الأول[٤] من هذا الكتاب تكلم الفيروزآبادى على مباحث تتعلق بسور القرآن الكريم وعقد لكل سورة بصيرة تضم تسعة مباحث: خصص المبحث الثامن منها (للمتشابه) فى السورة.

---

(١) هو الإمام اللغوى المؤلف المشهور مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (٧٢٩ ــ ٨١٧ هـ) مؤلف القاموس المحيط فى اللغة . ومصنفاته فى التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ بلغت خمسين مصنفًا، منها شرحه لصحيح البخارى المسمى (فتح البارى بالسج الفسيح الجارى فى شرح صحيح البخارى) وكان يقدر تمامه فى أربعين مجلدة كمل منها عشرون .

(٢) كارزين ــ بفتح الراء وكسرها وبكسر الزاى كما صرح الفيروزآبادى فى مادة (كرز) فى القاموس المحيط. وهناك بلدة أخرى من كور سابور يطلق عليها « كازرون » . وقد التبس الأمر على كثير من المتخصصين فنسبوا الفيروزآبادى إلى الأخيرة .

(٣) نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فى ست مجلدات اعتبارا من سنة ١٣٨٣هـ حتى سنة ١٣٩٣هـ.

(٤) الجزء الأول بتحقيق العلامة الأستاذ محمد على النجار سنة ١٣٨٣ (١٩٦٣ م) ويعتبر فى نظرنا أول نص مستبطن مطبوع لكتاب « البرهان » صدر منجما على مبحث المتشابه الذى عقده الفيروزآبادى لكل سورة .

ونجَّم كتاب (البرهان) للكرمانى على مبحث المتشابه من أول الكتاب إلى آخره ، حتى تم توزيعه بتمامه على جميع السور .

ويؤخذ على الفيروزآبادى أنه قد سلك فى الاستبطان(١) طريقة تُفضى إلى نسبة مادة كتاب (البرهان) إلى مصنف كتاب البصائر؛ إذ لم ينبه إلى قيامه بهذا الاستبطان كما تقتضيه الأمانة العلمية ، وفى نفس الوقت عمد إلى التخلص بلباقة من كل ما يدل على أن الكرمانى هو صاحب مادة المتشابه فى كتابه البصائر ، فهو دمج متعمد ، القصد منه نسبة جميع مادة كتاب (البرهان) إلى الفيروزآبادى .

وبمراجعة مبحث المتشابه فى كتاب البصائر ــ الجزء الأول منه ــ على كتاب (البرهان) للكرمانى وجدناه صورة منه طبق الأصل دون أى تصرف فى النص . وقد صادفنا حذفا فى مواضع قليلة وهو حذف يرجع إلى سقوط المحذوف من نسخة البرهان التى وقعت فى يد

---

(١) ظاهرة استبطان كتب الغير دون ذكر أصحابها من الظواهر المَرَضية التى تفشّت منذ ظهرت المؤلفات ، ومنذ انحرفت غريزة التملك انحرافا مَرَضيا ، وتمتد جذور هذه الظاهرة فى العالم الإسلامى إلى مطلع القرن الثالث الهجرى ، واستفحل أمرها كلما كثرت المؤلفات فى كل علم وفن إلى وقتنا هذا . ولا شك أن هذه العملية هى من أسوأ عمليات السرقات العلمية والأدبية ، وقد نبه عليها المتخصصون فى كل فن وفضحوا من قاموا بها ، وما لم يتم التنبيه على ذلك يظل فى طىّ الخفاء حتى يجد من ينبه عليه إن عاجلا أو آجلا . ويا حبذا لو خُصّصت لهذه السرقات مؤلفات فى كل مادة تنبه على أصحابها . وقد تنبهت الدول المتقدمة فى العصر الحديث إلى حماية حق المؤلف ، فأصدرت ميثاقا دوليا بحقوق التأليف تلتزم جميع الدول الموقعة عليه بمراعاته ، كما منعت دور النشر ــ فى الدول الموقعة على هذا الميثاق ــ من الاقتباس من المؤلفات إلا بشروط يجب مراعاتها .

ويا حبذا لو سارت الدول العربية على هذا المنوال حماية للعلم والنهضة العلمية وكتب التراث من السطو عليها . وفيما يلى نذكر بعض العواقب الوخيمة للسطو العلمى والأدبى :

* ظهور طبقات طفيلية من مدعى العلم الذين تخصصوا فى السطو على مجهودات غيرهم ، وكلما أحرزوا نجاحا فى هذا المضمار كلما ازدادوا استرسالا فى كسلهم العقلى إلى درجة تجعلهم لا يطيقون القيام بالواجبات العلمية التى تتطلبها مناصبهم وخاصة فى الجامعات ، وينعكس هذا الضَّعْف على مستوى المادة نفسها ، وعلى الطلاب ، وعلى التخصصات العلمية فى جميع المواقع والقطاعات .

* فتح الأبواب أمام المحترفين ليدخلوا فى زمرة هم غرباء عنها ، وقد يصلوا إلى مناصب تمكنهم من التحكم فى مصائر العلماء . ولا نتيجة لذلك سوى التخلف العلمى وهجرة العلماء من أوطانهم ، وهى كارثة قومية لا تخفى آثارها .

* ضعف الابتكار ، والاكتفاء بولوج العلم من الأبواب الخلفية عن طريق خسيس رخيص ألا وهو السرقة . ونقترح فى هذا الصدد : إصدار قوائم بالسرقات العلمية ، ليعلم أصحابها أنهم لن يفلتوا من الجزاء الأدبى على الأقل ، فإذا رأى ذلك غيرهم لم يفكر أحد فى كسر هذه الرقابة التى تهدد كل من تحدثه نفسه ببناء مجد علمى رخيص بسلوك هذا المسلك الدنىء .

ويعجبنى ما فعلته مجلة الفيصل السعودية حينما نشر أحد هؤلاء الطفيليين مقالا فى أحد أعدادها سنة ١٤٠٠ هـ ، ثم اتضح للمجلة أن المقال مسروق بتمامه ، فما كان منها إلا أن نددت بالكاتب فى العدد التالى وأعلنت أنها ترفض النشر له ولأمثاله .

الفيروزآبادى أو سقوطه من نسخة البصائر نفسها وذلك : مثل حذف متشابه سورة النحل أو حذف بضعة أسطر من توجيه المتشابه فى سورة أخرى .

ولما لمسناه من أمانة الفيروزآبادى فى المحافظة على نص كتاب (البرهان) فيما عدا محاولات محو نسبته إلى الكرمانى وهى لا تضر النصّ فى شىء : اعتبرنا مبحث المتشابه فى الجزء الأول من النسخ المخطوطة لكتاب (بصائر ذوى التمييز) نسخة خطية من نسخ (البرهان) للكرمانى ولو حدث وانفردت نسخة البصائر بأية زيادة غير موجودة فى باقى نسخ كتاب (البرهان) فإنا نضرب عنها صفحا ولا نعتبرها من النص ، ونكتفى بالإشارة إليها فى الحاشية بما يفهم منه انفراد نسخة البصائر بهذه الزيادة .

بقى أن نقول : إن محقق كتاب البصائر الأستاذ العلامة محمد على النجار ــ رحمه الله تعالى ــ قد أشار فى الجزء الأول ص ٣٣١ حاشية رقم (١) إلى أن « أصل هذا الكتاب فى المتشابهات هو برهان الكرمانى » إلا أن هذه العبارة لا تفيد ما ذكرناه آنفا إذ تتسع لشرح (البرهان) مثلا أو (اختصاره) أو التصنيف على نهجه ومنواله . . . إلخ ولا نعلم أحدا سبقنا إلى التنبيه إلى استبطان الفيروزآبادى للبرهان حفظًا لحق الكرمانى فى التأليف ومحافظة على كتابه من الضياع .

وهناك نسختان خطيتان من كتاب البصائر فى المكتبة التيمورية بدار الكتب : الأولى ترجع إلى سنة ١١٧٢ هـ (تفسير / ٢٢٩) والثانية حديثة وبدون تاريخ .

احتواء كتاب البرهان :

احتواه بعض الأئمة فى مصنفاتهم ومن بين هؤلاء شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن أحمد الأنصارى (٨٢٣ ــ ٩٢٦ هـ) فى مصنّفه (فتح الرحمن بكشف ما يَلتبِس فى القرآن)(١) .

يقول ــ رحمه الله تعالى ــ فى مقدمته : « وبعد ، فهذا كتاب مختصر فى ذكر آيات القرآن المتشابهات المختلفة بزيادة أو تقديم أو إبدال حرف بآخر وغير ذلك مع بيان سبب الاختلاف وفى ذكر غير المختلفة مع بيان سبب تكراره . وفى ذكر أنموذج من أسئلة القرآن العزيز وأجوبتها صريحا أو إشارة ، جمعته من كلام العلماء المحققين مع ما فتح الله به من فيض فضله المبين » .

---

(١) فى المكتبة الأزهرية ــ علوم القرآن ــ ثلاث نسخ منه : إحداها تمت فى حياة المصنِّف مؤرخة سنة ٩١٧ هـ فى ١٧٠ ق . وفى دار الكتب ثلاث نسخ . هذا والكتاب مطبوع على هامش تفسير الخطيب الشربينى (العلامة المفسر محمد بن أحمد الشربينى ت ٩٧٧ هـ) المسمى تفسيره (السراج المنير فى الإعانة على معرفة كلام ربنا الحكيم الخبير) فى أربعة مجلدات / ط بولاق سنة ١٢٩٩ هـ وقد جرده بعضهم وأصدره فى مؤلف مستقل محققًا . وبالرغم من أنه طبع منذ أكثر من قرن إلا أن أحد جهابذة تحقيق التراث ادعى أنه لم يطبع !!

وكأنه ــ رحمه الله تعالى ــ قد أخلى عهدته بوجه عام حين قال : « جمعته من كلام العلماء المحققين » فلم ير داعيا إلى التنبيه إلى احتواء كتاب البرهان الذى كان ينقل عبارته كما هى تارة ويتصرف فيها بما يبين غامضها تارة أخرى ، ومع ذلك فإن هذه الإشارة لا تعفى من وجوب بيان المصنّف الأساسى الذى اعتمد عليه ومنهم :

❊ العلامة الأجهورى :

وهو العلامة عطية بن عطية الأجهورى البرهانى الشافعى (ت ١١٩٤ هـ) [١] : له عدة مؤلفات من بينها (إرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن) [٢] ، وقد عمد إلى أربعة مصنفات فنجّمها بحسب سور القرآن الكريم ، أى بمعدل مصنف لكل فن ذكره فى عنوان الكتاب ، وهو يتصرف أحيانا فى النص ، والأمانة العلمية تقتضى بيان ذلك بالتفصيل فى مقدمة الكتاب .

متابعة النص فيما اقتبسه الأئمة من كتاب البرهان :

نكتفى فى هذا الصدد بمن صنفوا فى علوم القرآن ، فنذكر أهم كتابين فى هذا الشأن ونضيف إليهما كتاب (معترك الأقران فى إعجاز القرآن) وهذه المصنفات لإمامين جليلين هما : الإمام الزركشى [٣] (ت ٧٩٤ هـ) ، والإمام السيوطى (ت ٩١١ هـ)ــ وكانا ينقلان فى بعض الأحيان عبارة الكرمانى بنصها . ولبيان ذلك نقول :

❊ الإمام الزركشى :

تكلم هذا الإمام على المتشابه اللفظى فى كتابه النّفيس (البرهان فى علوم القرآن) [٤] ونقل عن الكرمانى فى مواضع كثيرة ، وعلى سبيل المثال :

عند قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ سورة البقرة من الآية : ٢٣ . قال : « وفى غيرها بإسقاط « من » لأنها للتبعيض . ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة حَسُن دخول ﴿ مِّن ﴾ فيها ؛ ليعلم أن التحدى واقع على جميع القرآن من أوله إلى آخره بخلاف غيرها من السور فإنه لو دخلها « من » لكان التحدى واقعًا على بعض السور دون بعض ولم يكن ذلك بالسهل » [٥] ! هـ .

---

(١) عند غير المرادى أنه توفى سنة ١١٩٠ هـ .

(٢) فى المكتبة الأزهرية ــ علوم القرآن ــ ست نسخ منه : منها ثلاث نسخ فى حياة المؤلف . وفى المكتبة التيمورية بدار الكتب / فن التفسير نسخ منه فى ٨٥٠ صفحة . وقد خصص للمتشابه الفصل الثالث من كلامه على كل سورة . وهذا الكتاب مطبوع .

(٣) هو الفقيه الشافعى الأصولى المحدث بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (٧٤٥ ــ ٧٩٤ هـ) .

(٤) مصنفه المشهور « البرهان فى علوم القرآن » طبع عدة طبعات وصدر فى أربعة أجزاء سنة ١٣٧٦ هـ .

(٥) البرهان فى علوم القرآن ١/ ١١٥ وراجع عبارة الكرمانى الوجه ٤/أ من الأصلية .

* الإمام السيوطى [١] :

ذكر هذا الإمام الجليل أمثلة للمتشابه بنوعيه اللفظى والمعنوى فى كتابيه النفيسين (الإتقان فى علوم القرآن ، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن) وتوسع فى الأخير أكثر .

وفيما يلى مقتطفات من مصنفه (معترك الأقران) ؛ للمقارنة بين كلام السيوطى وبين كلام الكرمانى ، ولم نذكر نص الإمام الكرمانى ؛ لأنه هو نفسه كلام السيوطى وتحاشيا للتكرار نشير إلى موضعه فى النسخة الأصلية من كتاب (البرهان) :

مقتطفات من (معترك الأقران) :

* قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [٢] :

« فجعل ﴿ الذى ﴾ مكان قوله فيما بعد [٣] ﴿ ما ﴾ وزاد ﴿ من ﴾ لأن العلم فى الآية الأولى علم بالكمال الذى ليس وراءه علم ؛ لأن معناه بعد الذى جاءك من العلم بالله وصفاته، فكان لفظ ﴿الذى﴾ أليق به من لفظ ﴿ ما ﴾؛ لأنه فى التعريف أبلغ، وفى الوصف أقعد؛ لأن « الذى » تعرِّفُه صلته ولا يتنكّر قط. ويتقدمه أسماء الإشارة نحو قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ ﴾ [٤] ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ ﴾ [٥] فيكتنفه بيانان: الإشارة والصلة، ويلزمه الألف واللام. ويثنّى ويجمع وليس لـ ﴿ ما ﴾ شىء من ذلك؛ لأنه يتنكّر مرة ويتعرف أخرى ، ولا يقع وصفا لأسماء الإشارة ولا يدخله الألف واللام ولا يثنى ولا يجمع .

وخص الثانى بـ﴿ ما ﴾ ؛ لأن المعنى بعد ما جاءك من العلم بأن قبلة الله هى الكعبة، وذلك قليل من كثير من العلم ، وزيد معه ﴿ من ﴾ التى هى لابتداء الغاية ؛ لأن تقديره من الوقت الذى جاءك العلم فيه بالكعبة ؛ لأن القبلة الأولى نُسِخت بهذه الآيات وليس الأول موقتا بوقت .

وقال فى سورة الرعد: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[٦] : فعبّر بـ ﴿ما﴾ ولم يزد « من » هنا ؛ لأن العلم ها هنا هو الحكم العربى، أى القرآن، فكان بعضا من الأول ولم يزد « من » ؛ لأنه غير مؤقت : وقريب من معنى القبلة ما فى آل عمران : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [٧] » [٨] . راجع كتاب (البرهان) النسخة الأصلية الوجهين ٥ / ب ، ٦/ أ .

---

(١) الإمام الجليل الحافظ المفسر المشارك فى كثير من العلوم عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٨٤٩ ــ ٩١١هـ) لم يخلف بعده مثله فى الحديث .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٤٥ ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ .

(٤ ، ٥) سورة الملك من الآيتين : ٢٠ ، ٢١ .

(٦) سورة الرعد من الآية : ٣٧ . (٧) سورة آل عمران من الآية : ٦١ .

(٨) معترك الأقران ١ / ٩٠ وقد وضعنا النص موضع المقارنة بين معقوفين .

* قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾ (١) :

« إنما لم يزد هنا ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كما فى غيرها (٢) ؛ لأن قبله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾ (٣) فلو أعاده لالتبس » (٤) راجع (البرهان) الوجه ٦ / ب .

* قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ (٥) :

فقدم ضمير المجرور فى البقرة وأخره فى المائدة والأنعام والنحل (٦) ؛ لأن تقديم الباء الأصل لأنه يجرى مجرى الألف والتشديد فى التعدى فكان كحرف من الفعل ، وكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ .

وأما ما عدا هذه السورة فأخَّرَ (به) ؛ لأنه « قدم ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله، وتقدم ما هو بالغرض أولى ؛ ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل ، والحال على ذى الحال، والظرف على العامل فيه إذا كان أكثر الغرض فى الإخبار»(٧). راجع (البرهان) الوجه ٦/ب.

* ﴿ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٨) :

بعدما ساق السيوطى سبب النزول قال : « فإن قلت : ما فائدة تكريرها ثلاث مرات ؟ فالجواب : أن الأولى لنسخ القبلة والثانية للسبب وهو قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٩) والثالثة للعلة وهو قوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ (١٠) .

وقيل : الأولى فى مسجد المدينة والثانية خارج المسجد والثالثة خارج البلد . وقيل : فى الآية خروجان : خروج إلى المكان ترى فيه الكعبة . وخروج إلى مكان لا ترى ، أى الحالتين فيه سواء » (١١) . راجع (البرهان) الوجه ٦ / أ .

* قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٢) :

« فإن قلت: قد قال فى الأنعام ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾ وعطف فى غيرها بالفاء فما الفرق بينهما؟

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٦٠ .

(٢) يعنى الآيات التى ذكر فيها ﴿تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ وهى ثلاث آيات فى ثلاث سور : آل عمران : ٨٩ ، النحل: ١١٩ ، النور : ٥ . وكلها غير مسبوقة بآية فيها ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ .

(٣) يعنى الآية السابقة بها فى سورة البقرة وهى الآية : ١٥٩ .

(٤) معترك الأقران ١ / ٩٢ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ١٧٣ .

(٦) سورة المائدة من الآية : ٤ ، الأنعام من الآية : ١٤٥ ، النحل من الآية : ١١٥ .

(٧) معترك الأقران ١ / ٩٢ ، ٩٣ .

(٨) آيات سورة البقرة الآية : ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٩ ، ١٠) سورة البقرة من الآيتين : ١٤٩ ، ١٥٠ على التوالى .

(١١) معترك الأقران ٣ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(١٢) سورة الأنعام الآية : ١١ .

فالجواب أنه لما كان ثم للتراخى ، فأمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك سير بعد سير وزمان بعد زمان »[١] . راجع (البرهان) الوجه ١٢ / ب .

وإن تقدير هؤلاء الأئمة الكبار للكرمانى برجوعهم إليه واقتباسهم منه ، بل وإقدام بعضهم على استبطان مصنفه أو احتوائه وهم من أصحاب الشهرة الواسعة والصيت الذائع فى العالم الإسلامى؛ نقول: إن كل واحد من هذه الأمور يعادل أثمن شهادات التفوق التى يمكن أن تمنح للدلالة على القيمة العلمية للمصنِّف ـ بكسر النون المشددة ـ وكتابه (البرهان) الذى بين أيدينا .

ولقد تمتع هذا الكتاب النفيس بشهرة واسعة لم ينلها أى مصنَّف فى بابه ، ولعل فى هذا ما يفسر كثرة النسخ الخطية التى عثرنا عليها لهذا المصنف ، وقد بلغت أربع عشرة نسخة كما سنبينه عند الكلام على الأصول الخطية للكتاب .

* * *

سادسا : الأصول الخطية لكتاب البرهان

انتهى بنا البحث الدقيق عن النسخ الموجودة من كتاب (البرهان) إلى العثور على ثلاث عشرة نسخة منه ، وبضم النسخة التى استبطنها الفيروزآبادى ضمن كتابه (البصائر) تكون عدتها أربع عشرة نسخة ، ولا يدخل فى ذلك أية نسخة مصورة عن هذه النسخ وهى موزعة على المكتبات كما يلى :

* ست نسخ منها فى دار الكتب والوثائق القومية والمكتبات الملحقة بالدار وبيانها كما يلى :

نسخة واحدة لكل مكتبة من مكتبات طلعت ، وحليم ، وقولة ، والتيمورية ، ونسختان بالمكتبة الرئيسية لدار الكتب .

* ست نسخ بالمكتبة الأزهرية .

* نسخة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة .

الوصف الإجمالى للنسخ :

أولا : نسخ دار الكتب والوثائق القومية والمكتبات التابعة لها مرتبة حسب تاريخ نسخها :

١ ـ نسخة مكتبة طلعت[٢] : (تفسير رقم ٣٠٩) بتاريخ سنة ٧٥٢ هـ :

---

(١) معترك الأقران ٣ / ٢٧٠ .

(٢) بدأنا بها لعدة اعتبارات جعلتنا نختارها لتكون « النسخة الأم » .

تقع فى ٥٢ ورقة بخط دقيق قديم ما عدا الورقات الثلاثة الأولى ، فهى من ورق وبخط حديث مغاير لباقى الكتاب ، كما أن مسطرتها ٢٢ سطرا للصفحة فى متوسط عشر كلمات للسطر وهى غير مسطرة وسطر الأصل . وهذه الورقات أضيفت قطعا لجبر ما فقد من النسخة الأصلية ، ويمكننا تحديد نسخ إضافتها بعام ١١٤٩ هـ وهو تاريخ التمليك المدون على الورقة الأولى للتشابه بينهما فى الخط والمداد .

ومن أول وجه الورقة الرابعة إلى آخر الكتاب نجد أن مسطرة كل صفحة ٢٣ سطرا لمتوسط ١٥ كلمة لكل سطر ، ولم يذكر ناسخها اسمه ويظهر أنه من العلماء أو المنتمين للعلم بدليل ما تركه من تعليقات على حاشية بعض الصفحات منقولة من تفسير الكشاف للزمخشرى ، أو التفسير الكبير للإمام الرازى ، وسنذكر عند الكلام على النسخة الأم بعض الخصائص التى دعتنا لاختيار هذه النسخة لتكون النسخة الأم من بين باقى النسخ .

٢ ــ نسخة مكتبة حليم (قراءات رقم ١٤) بتاريخ ٧٤٧ هـ :

وتقع فى ٨٧ ورقة (نهايتها وجه الورقة ٨٧) مسطرتها ٢١ سطرا بمتوسط عشر كلمات للسطر وخطها نسخى جيد جدا حديث القاعدة ، وفى مطلعها زخرفة عربية جميلة يتوسطها قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ الآية الأولى من سورة الفتح ــ وعند الانتقال من آية إلى أخرى كتب لفظ : (قوله) بالمداد الأحمر ؛ ليكون دليلا على انتقال المصنف من الكلام على الآية السابقة إلى الكلام على آية أخرى .

وهناك اعتبارات تجعلنا نرجح أن نسخها وقع بعد التاريخ المدون فى آخرها كما سيأتى بيانه عند الكلام على النسخة الأم . ولم يذكر اسم ناسخها .

وقد أشرنا إليها خلال التحقيق بالرمز (ح) .

٣ ــ نسخة مكتبة قولة (تفسير رقم ٤٥) بتاريخ ١٠٠٤ هـ :

وتقع فى ٧٩ ورقة ونهايتها وجه الورقة ٧٩ ، ومسطرتها ١٩ سطرا بمتوسط ١١ كلمة لكل سطر ــ وخطها نسخى واضح ، وأخطاؤها كثيرة ، ولم يذكر اسم ناسخها .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ق) .

٤ ــ نسخة دار الكتب والوثائق القومية (مجاميع / ٣٥٨) سنة ١٠٠٦ هـ :

وهى الأولى فى المجموعة [من الورقة ١ / ٨٥ ب] وهى تقع فى ٨٥ ورقة ومسطرة صفحاتها ٢١ سطرا بمتوسط تسع كلمات لكل سطر ، وخطها نسخى عادى واضح ، واسم ناسخها (محمد بن محمد البهنسى) .

وقد أشرنا إليها بالرمز (د . م) .

٥ ــ نسخة المكتبة التيمورية (تيمورية / تفسير / ٤٥) بتاريخ ١١٤١ هـ :

وتقع فى ٨٠ ص من الحجم الكبير ومسطرة صفحاتها ٢٧ سطرا بمتوسط ١٤ كلمة لكل سطر ، وخطها نسخى جميل مجدول بالمداد الأحمر أول الكلام على كل آية ، وتخللها حذف كثير ، ولم يذكر اسم ناسخها .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ت) .

٦ ــ نسخة دار الكتب والوثائق القومية (تفسير / ٥٠٩) بدون تاريخ :

وتقع فى ١١٥ ورقة مسطرتها ١٥ س X ٩ كلمات فى المتوسط للسطر ، وخطها نسخى جميل . وقد فصل الناسخ بين كل جملة بحلية تشبه الحلية التى تفصل بين الآيات فى المصاحف . ولحسن تنسيقها وإبداعها الفنى وضعت فى معرض المخطوطات بدار الكتب ، ولها نسخة ميكروفيلم ــ بالدار (ميكروفيلم رقم ٤٠٦٩) وهى بخط محمد بن أحمد الغزنوى البرهانى المالكى .

وقد أشرنا إليها بالرمز (د . ت) .

ثانيا : نسخ المكتبة الأزهرية :

نذكرها فيما يلى حسب الترتيب الزمنى لتاريخ النسخ بدءًا من أقدمها :

١ ــ نسخة مقيدة فى علوم القرآن تحت رقم (« ١٩٢ » ٤٤٧٤) تم نسخها سنة ٨٧٣ هـ :

وتقع فى ٨٠ ورقة وبها أكل أرضة أثّر على قراءة النص . هذا بالإضافة إلى رداءة خطها، ومسطرتها مختلفة وناسخها هو : جعفر بن إبراهيم بن جعفر بن سليمان القرشى الشافعى المقرئ الأزهرى السنهورى .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ١ ») .

٢ ــ نسخة مقيدة فى علوم القرآن تحت رقم (« ١٩٣ » ٥٥٦٣) كان الفراغ من نسخها عام ١٠٠١ هـ :

وتقع فى ٤٧ ورقة وخطها عادى دقيق ومسطرتها ٣٥ سطرا X متوسط عشر كلمات للسطر . وقيمتها التاريخية أنها بخط الإمام إبراهيم اللقانى المالكى [١].

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ٢ ») .

وتوجد منها نسخة مصورة [٢] بدار الكتب والوثائق تحت رقم ب ٣٨٢٦٢ .

---

(١) هو الإمام إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقانى (نسبة إلى لقانة بفتح أوله وثانية ــ بالبحيرة) (ت ١٠٤١هـ) وأشهر مؤلفاته التى تدرس فى الأزهر الآن (جوهرة التوحيد) ، وله بهجة المحافل فى التعريف برواة الشمائل ، وحاشية على مختصر الإمام خليل فى الفقه وغيرها .

(٢) وننبه إلى أن التصوير جاء معكوسا بحيث تسبق الصفحة اليسرى الصفحة اليمنى ، فمثلا الوجه ٦٦ / أ يليه الوجه ٦٥/ ب . وبعد ذلك ٦٧/ أ ثم ٦٦/ ب . وننصح بإعادة التصوير على الوجه الصحيح .

٣ ــ نسخة مقيدة فى قسم المجاميع تحت رقم («٢٣ » ٣٤٨٤) . تم نسخها سنة ١١٠٨هـ :

وترتيبها التاسع فى المجموعة (ق ١٢٣ / ق ١٩٨) وتنتهى بوجه ق ١٩٧ ، وجملة أوراقها ٧٦ ورقة ، وخطها عادى مجدول بالمداد الأحمر ومسطرتها ٢٥ سطرا وهى بخط محمد بن إبراهيم النجاحى بلداً ، الشافعى مذهباً .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ٣ ») .

٤ ــ نسخة مقيدة فى علوم القرآن تحت رقم (« ١٩٥ » ٣٧٦٢٢) تم نسخها سنة ١٢٧٠هـ:

وتقع فى ١٠٤ ورقة مسطرتها ٢١ X ٢٠ وهى مجدولة بالمداد المذهب وأولها زخرفة عربية مذهبة تدل على ذوق فنى رفيع وهى بخط أحمد حجازى .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ٤ ») .

٥ ــ نسخة مقيدة فى علوم القرآن تحت رقم (« ١٩٤ » ١٦٥٧١) وهى حديثة النسخ سنة ١٣٢٨ هـ :

وتقع فى ٨٢ ورقة ومسطرتها ٢٣ س X ١٢ كلمة للسطر وهى بخط إبراهيم يوسف .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ٥ ») .

٦ ــ نسخة مقيدة فى علوم القرآن تحت رقم (« ١٩١ » ١٠١٠) :

وتقع فى ٥٤ ورقة بقلم معتاد ، وتختلف مسطرتها فهى من الورقة الأولى إلى العاشرة ١٧ س ، ومن وجه الورقة ١١ إلى الآخر ٢٥ سطرا ، وهى مجهولة التاريخ والناسخ .

وقد أشرنا إليها بالرمز (ز « ٦ ») .

ثالثا : نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق :

فهرس علوم القرآن : رقم (٣٧٧٦ « ٣٩ مجاميع ») : راجع تذييل الفهرس ص : ٤١٨ / ٨,٥ X ١٤ سم ، وهى نسخة حديثة بخط فارسى مستعجل قليل الإعجام تصعب قراءته أحيانا ، ورمز إليها بالرمز (ظ « ١ ») .

رابعا : نسخة المدينة المنورة :

وتوجد فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت [1] وقد تم نسخها سنة ٨٥٤ هـ :

---

(١) هو شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت بن إبراهيم بن عصمة الله بن إسماعيل رائف باشا الحسينى ، تقلد قضاء القدس ومصر والمدينة المنورة ، وولى مشيخة الإسلام فى الأستانة سنة ١٢٦٢ هـ فاستمر فيها إلى سنة ١٢٧٠ هـ ، وفى فهرس الفهارس للكتانى أن ولادته ووفاته (١٢٠١ ــ ١٢٧٢ هـ) وفى هدية العارفين (١٢٠٠ ــ ١٢٧٥ هـ) وهو الأصح وكانت وفاته فى الأستانة . وتقع مكتبته فى مواجهة الحرم النبوى الشريف وقد أفرده الشهاب الألوسى بالترجمة بعنوان (شهىّ النعم فى ترجمة عارف الحكم) واشتهرت كتابة اسمه (حكمت) بالتاء المبسوطة ولكن اسمه طبقا لخاتمه الذى كان يصدر به كتبه الموقوفة (أحمد عارف حكمة الله) .

وتقع فى ١٤٩ ورقة تنتهى بالوجه ١٤٩ ومسطرتها ١٥ سطرا X ٦ كلمات فى المتوسط للسطر وعنوان هذه النسخة (برهان القرآن لما فيه من الحجة والبيان) تأليف الإمام العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره برهان الدين تاج القراء أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الشافعى الكرمانى . وهى بخط عمر بن على بن حيعل الحنفى .

وعلى وجه الورقة التالية لورقة العنوان تمليكات : منها تمليك لعبد الباقى إبراهيم . وختم لصاحب الوقف أحمد عارف حكمت أفندى عصمة الله الحسينى (سنة ١٢٦٦ هـ).

وخط هذه النسخة نسخى متوسط ، مجدول بالمداد الأحمر عند أسماء السور وأوائل الآيات عند لفظ : (قوله تعالى) ، وبين كل جملة دائرة دقيقة حمراء مطموسة . وفيها استدراكات كثيرة من الناسخ لجملٍ أو كلمات سقطت منه أثناء النسخ فأثبتها على الحاشية أمام الموضع الذى سقطت منه .

وقد أشرنا إليها بالرمز (مد) .

خامسا : نسخة البصائر (تفسير تيمورية / ٢٢٩) سنة ١١٧٢ هـ :

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الفيروزآبادى قد استبطن كتاب (البرهان) للكرمانى ضمن كتابه (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز) . ويقع كتاب (البرهان) منجما فى الجزء الأول منه .

التنبيه إلى أربع نسخ شقيقات :

تبين لنا بعد التقصى أن أربع نسخ منها قد نقلت عن أم واحدة فى أزمنة مختلفة وكل نسخة منها تحمل الدليل الثابت على أنها ترجع إلى أصل واحد ؛ إذ تضمنت كل منها تاريخين دالين على الفراغ من تحريرها :

التاريخ الأول : مشترك بين جميع هذه النسخ ؛ إذ تتفق جميعا على ذكر هذه العبارة عقب الفراغ من تحرير النص « وقع الفراغ من تحريره يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب من سنة ست وأربعين وسبعمائة من الهجرة » .

والتاريخ الثانى : ذكره الناسخ عقب العبارة السابقة، وبيّن فيه تاريخ فراغه من النسخ[1].

---

(١) نذكر فيما يلى عبارة كل ناسخ بعد العبارة السابقة المشتركة فيما بينهم :

(أ) ــ النسخة ز (١) : (وكان الفراغ من رقمه بخط خويدم أهل القرآن العظيم ، وطلبة العلم الشريف جعفر بن إبراهيم بن جعفر بن سليمان القرشى المقرئ الأزهرى السنهورى من بعد عصر يوم الخميس الثانى والعشرين من شهر الله المحرم افتتاح عام ثلاثة وسبعين وثمانمائة ــ أحسن الله عاقبتها وحسبنا الله ونعم الوكيل) إلخ .

(ب) ــ النسخة ز (٢) : (وافق الفراغ من رقمه يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان من شهور السنة =

ويستثنى من ذلك نسخة واحدة أغفل ناسخها ذكر تاريخ الفراغ من نسخها ، وهى النسخة (د . ت). فظن من لا خبرة عنده أن تاريخ نسخها هو سنة ٧٤٦هـ وهذا باطل من وجوه:

١ ــ اشتراك هذه النسخ فى العبارة الأولى المذكورة آنفا والدالة على أنها جميعا مشتركة فى النقل عن أم واحدة يرجع تاريخ نسخها إلى (عام ٧٤٦ هـ).

٢ ــ العبارة الثانية المستأنفة عقب الأولى إنما هى بيان لتاريخ فراغ الناسخ من النسخ.

ولا علاقة لذلك بالتاريخ الأول (سنة ٧٤٦ هـ) الداخل ضمن نص النسخة الأم للنسخ الأربعة .

٣ ــ النسخة (د . ت) أغفَل ناسخها (محمد بن أحمد الغزنوى البرهانى المالكى) ذكر فراغه من نسخها مما يُوهِمُ أنها هى النسخة الأم لباقى الشقيقات ، ويبطل هذا الافتراض أن الأمر لو كان كذلك لما فات على النساخ جميعا ذكر اسم ناسخها (البرهانى) ولئن فات على واحد منهم ما تركه الآخرون . هذا إلى أن حداثة خط هذه النسخة من حيث الرسم والقواعد الإملائية والورق المستعمل كل ذلك يؤكد أنها لا ترجع إلى (سنة ٧٤٦ هـ). فلم يبق بعد ذلك مجال للشك فى أنها داخلة ضمن الشقيقات الأربعة .

= الأولى بعد الألف من الهجرة النبوية على مشرفها أفضل الأنام أفضل الصلاة وأتم السلام على يد إبراهيم اللقانى المالكى) إلخ .

(جـ) ــ النسخة ز (٣) : (وافق الفراغ من رقمه يوم الجمعة المبارك حادى عشر شوال من شهور سنة ثمان ومائة وألف من الهجرة النبوية على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، وذلك على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن إبراهيم النجاحى بلدا ، الشافعى مذهبا ــ غفر الله له ولوالديه) .

(د) النسخة (د.ت):(كتبه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد الغزنوى البرهانى المالكى ـ غفر الله له ولوالديه ولمن أشار بكتابته ولكل المسلمين أجمعين آمين . وحسبنا الله ونعم الوكيل) ولم يذكر تاريخ فراغه من نسخها .

جدول يبين النسخ الخطية ومكان وجودها ورموزها

المكتبة	التاريخ	[illegible]	عدد الأوراق أو الصفحات	اسم الناسخ	الرمز
١ ــ طلعت	٧٥٢ هـ	تفسير / ٣٠٩	٥٢ ق		الأم
٢ ــ حليم	٧٤٧ هـ ظنًا	قراءات / ١٤	٨٧ ق		ح
٣ ــ عارف حكمت بالمدينة المنورة	٨٥٤ هـ	علوم القرآن	١٤٩ ق	علي بن حيعل الحنفي	مد
٤ ــ الأزهرية	٨٧٣ هـ	علوم القرآن / ١٩٢	٨٠ ق	السنهوري	ز ـ ١
٥ ــ الأزهرية	١٠٠١ هـ	علوم القرآن / ١٩٣	٤٨ ق	الإمام اللقاني	ز ـ ٢
٦ ــ قوله	١٠٠٤ هـ	تفسير / ٤٥	٧٩ ق		ق
٧ ــ دار الكتب والوثائق القومية	١٠٠٦ هـ	مجاميع / ٣٥٨ / الأولى في المجموعة	٨٥ ق	بهنسي	د . م
٨ ــ الأزهرية	١١٠٨ هـ	مجاميع / ١٢٣	٧٥ ق	النجاحي	ز ـ ٣
٩ ــ التيمورية	١١٤١ هـ	تفسير / تيمورية / ٤٥	٨٠ ص	ضمن كتاب البصائر ، الجزء الأول	ت البصائر
١٠ ــ التيمورية	١١٧٢ هـ	تفسير / تيمورية / ٢٢٩			
١١ ــ الأزهرية	١٢٧٠ هـ	علوم القرآن / ١٩٥	١٠٤ ق		ز ـ ٤
١٢ ــ الأزهرية	١٣٢٨ هـ	علوم القرآن / ١٩٤	٨٢ ق	حجازي	ز ـ ٥
١٣ ــ دار الكتب والوثائق	بدون	تفسير / ٥٠٩ وميكروفيلم ٤٠٦٩	١١٥ ق	إبراهيم يوسف	د . ت
١٤ ــ الأزهرية	بدون	علوم القرآن / ١٩١	٥٤ ق	البرهان	ز ـ ٦

اختيار النسخة الأم :

فى مقدمة الشروط التى يجب أن تتوافر فى النسخة الأم : الأقدمية ، والضبط ، بمعنى أنها تكون من الناحية التاريخية أقرب أو من بين أقرب النسخ إلى عصر المؤلف ، ومن الناحية العلمية تكون أقرب النسخ إلى كلام المصنِّف .

وبعد دراسة دقيقة وفحص عميق لما لدينا من النسخ لم يبق أمامنا إلا اختيار نسخة مكتبة طلعت لتكون أساساً للتحقيق ؛ وذلك للاعتبارات التالية :

(أ) لأنها أقدم الأصول المخطوطة وأقربها إلى عصر المؤلف ويتبين ذلك من :

١ ــ قِدَم أوراقها ما عدا الجزء المرمم منها وهو ثلاث ورقات من أولها كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

٢ ــ خصائص خطها من ناحية الرسم أو القواعد الإملائية تثبت أنها أقدم النسخ :

* أمثلة تبين رسم بعض الحروف :

هـ = هو =

وإن = من =

الهمزة ترسم ياء استئنافًا = استينافا .

* أمثلة تبين الخصائص الإملائية لنسخة طلعت :

حذف الألف وسط الكلام فمثلا الثلاث = الثلث .

عدم نقط بعض الحروف : يقيده = يقيده . تعتدوها =

* نسخة حليم لا تنافس نسخة طلعت فى القدم :

لأن سماتها الخطية من حيث رسم الحروف وسط الكلمات أو فى أواخرها وكذا القواعد الإملائية لا تشبه ما اصطلح عليه النساخ من أهل القرون الثامن والتاسع والعاشر من الهجرة. ومما يؤكد ما قلناه: أن الناسخ ختم الكتاب بطرة معينة جرى استعمالها بعد هذا التاريخ بكثير. ولا يعترض على ذلك بأن هذه الطرة قد تكون مضافة إلى آخر الكلام فيما بعد ؛ إذ يبطل هذا الاعتراض أنها مكتوبة بنفس المداد وبنفس القلم الذى كتب به الناسخ . كذلك لا يدل تاريخ الفراغ منها على تاريخ نسخها .

لأن الذى كتب (نسخة حليم) نقل فى آخرها تاريخ الفراغ من نسخ النسخة الأم التى قام بنسخها ، وفى نفس الوقت أغفل هو ذكر اسم وتاريخ فراغه من النسخ .

وضحنا آنفا أن النسخ الأربعة الشقيقات (ز ــ ١ ،ز ــ ٢ ،ز ــ ٣، د ــ ت) منقولة عن أم واحدة يرجع تاريخ نسخها إلى (سنة ٧٤٦ هـ) .

obeikandl.com

ونميل إلى القول بأن الذى نسخ (نسخة حليم) أخطأ فى التاريخ فنقله (٧٤٧ هـ) وهو فى الحقيقة (٧٤٦ هـ) فتصبح النسخ الشقيقات خمسة .

(ب) هى أضبط النسخ من حيث استقامة العبارة وأقلها تصحيفا . ويرجع ذلك إلى أن ناسخها إما أن يكون من العلماء أو المنتمين إلى العلم ؛ بدليل تعليقاته على هوامش الصفحات . ولم تقتصر مهمته على نسخ الكتاب ، بل قابله وصححه ، وقد سجل هذا المجهود الذى بذله فى نهاية الكتاب بقوله : « قوبل وصحح بقدر الوسع والطاقة ولكن كان الأصل سقيما فوقع فيه ما فيه » .

ولصعوبة النص لم تخل أية نسخة من كثرة الأخطاء . وأقلها تصحيفًا بعد نسخة طلعت هما نسختا الفيروزآبادى والإمام اللقانى .

تصرفات ترجع إلى الناسخ :

منها :

ـ استخدام الرمز (صلعم) أحيانا بدلا من قول المصنف : (ﷺ) والدليل على أن هذا من تصرف الناسخ : أن العبارة جرت على أصلها فى باقى النسخ فلم نلتفت إلى رمز الناسخ لأنه خلاف الأصل .

ـ قد يحذف (تعالى) بعد قول المصنف : (قوله) فى بداية كل آية ، وقد تعقبنا ذلك فى جميع النسخ فوجدنا أن لفظ (تعالى) يتبادل بينها جميعا بحيث لو جمعناها لوجدناه مذكورا دائما عقب لفظ : (قوله) .

فجرينا على إثبات لفظ (تعالى) إذ لا يوجد أى دليل يدل على حذفه من الأصل . والحذف إن وجد كان تصرفا من النسّاخ يجرونه فى مواضع ، ولا يجرونه فى مواضع .

ولم نشر فى الحاشية إلى ذكر النسخ التى أثبتته ؛ لما فى ذلك من معاناة لا مبرر لها.

قد لا يثبت النص القرآنى كله فى بعض المواضع فيترك لفظة أو لفظتين أو أكثر من آخره، بينما نجده مثبتا فى غيره من النسخ وفى هذه الحالة نضع ما لم يثبته بين معقوفين .

* * *

سابعا : منهجنا فى العمل

إن الغاية القصوى التى يسعى للوصول إليها كل محقق للتراث هى تقديم النص المراد نشره مطابقا لكتاب المصنِّف أو قريباً منه بقدر الوسع .

ويتوقف النجاح فى هذه المهمة على التزام القواعد الأساسية التى تهدف إلى إبراز نص التراث فى صورته الأصلية أو قريبا منها بقدر الإمكان .

وفيما يلى نبين منهجنا فى العمل :

أولا : مقدمة التحقيق وتشتمل على النقاط الأساسية التالية :

ـ النشاط العلمى للمؤلف وبيان جميع ما أصدره من مؤلفات ، وإثبات أن الكتاب المطلوب تحقيقه واحد منها .

ـ تقييم المؤلف علميا بين معاصريه .

ـ بيان من سبقه من الأئمة فى التأليف فى المتشابه اللفظى .

ـ بيان الأئمة الذين تأثر بهم علميا وشيوخه وتلامذته .

ـ أثر كتاب (البرهان) فيمن صنفوا فى المتشابه بعد الكرمانى .

ثانيا : توثيق النص :

ويتطلب ذلك إجراء حصر شامل لجميع الأصول المخطوطة لكتاب (البرهان) . وذلك باستقصاء أخبارها فى جميع مكتبات العالم المهتم بالتراث العربى ؛ ليتسنى حصرها جميعاً تمهيدا لاختيار النسخة الأم .

وأى تقصير فى التزام هذه القاعدة قد يعرض التراث المنشور للشك فى صلاحيته ومطابقته للأصل فى حالة ظهور أصول مخطوطة جديدة لم يرجع المحقق إليها . وقد يتبين أنها أضبط من الأصول التى راجعها وأقرب إلى عصر المؤلف ، بل قد يكون أحدها بخط المؤلف نفسه . ولا مناص حينئذ من تكرار عملية الإلحاق والترميم أو إعادة التحقيق إذا لزم الأمر ؛ حتى يتم استيعاب جميع الأصول المبعثرة هنا وهناك .

وإذا لم تنل هذه الخطوة ما تستحقه من العناية إما طلبا لسرعة نشر النص ، أو ترجيحا لكفاية الأصول التى عثر عليها المحقق ، فإن ذلك يبعث على الشك فى قيمة هذا التحقيق وجدِّيته .

ثالثا : استخراج النص من مراجعة الأصول ومقابلتها على بعضها :

هذه المرحلة هى أشق مراحل تحقيق النص ، والنجاح فى اجتيازها معناه تقديم النص خاليا ـ بقدر الاستطاعة ـ من الشوائب المغايرة للأصل .

ونظرا إلى كثرة ما بين أيدينا من أصول مخطوطة لكتاب (البرهان) ، فقد تحاشينا ذكر اختلاف القراءات بين النسخ إلا إذا أفاد ذكر الخلاف معنى جديدا ؛ ذلك لأن كثرة عرض هذه الاختلافات إنما يؤدى إلى عكس المطلوب ، مما يضيِّع الفائدة المرجوة من التحقيق، بل ويجعل الكتاب مطولا مملا ، مشتتاً للذهن .

هذا وقد وضعنا الزيادات حيثما وجدت بين معقوفين .

رابعا : تابعنا النصّ فى مؤلفات الأئمة الذين جاؤوا بعد الكرمانى :

ويشمل ذلك:

ـ المؤلفات التى استبطن أصحابها كتاب (البرهان) دون أى تعديل فيه .

ـ المؤلفات التى احتوى أصحابها كتاب الكرمانى فيها مع التصرف أحيانا فى بعض عباراته .

ـ متابعة النص فيما اقتبسه الأئمة الذين تعرضوا للمتشابه بعد الكرمانى .

خامسا : ضبط النصوص التى احتواها كتاب (البرهان) :

١ ـ كان الكرمانى يكتفى عند سرد الآية بذكر كلمة منها أو كلمتين إشارة إليها ، إلا أن هذه الطريقة تجعل من المتعذر متابعة المراد أو فهْم النص بالنسبة إلى من لا تسعفه ذاكرته باستحضار جميع آى الذكر الحكيم متى استدعت الضرورة ذلك ، فيلزم من ذلك الرجوع إلى المصحف الشريف للوقوف على الآيات المطلوبة . ولما أن هذه العملية تتكرر عدة مرات فى كل صفحة من صفحات الكتاب ، وأحيانا فى كل سطر ، وهذا مما يضطر معه القارئ إلى قطع القراءة ووصلها عند كل سطر لمتابعة فهم المعنى ؛ فقد اقتضى رفع هذه المشقة ذكر الآية بتمامها ، وبيان السورة التى ذكرت فيها الآية .

٢ ـ فيما يختص بالحديث الشريف ، قمنا بتخريج ما استشهد به المصنف .

٣ ـ نسبة الشواهد الشعرية إلى قائليها لمراجعتها فى مظانها لمن شاء التوسّع فى البيان.

٤ ـ الرجوع إلى مؤلفات الكرمانى فيما اقتبسه منها :

صرح الكرمانى فى مقدمة (البرهان) أن كتابيه اللباب ، والغرائب فى التفسير قد اشتملا على أكثر ما جاء فى كتاب (البرهان) . ومن اطلع عليها يبدو له من أول وهلة أنه جرد كتاب (البرهان) من هذين الكتابين مع إضافات بسيطة . وقد أفاد ذلك فى توثيق الكتاب وضبط عباراته والتعليق عليها من كلام المؤلف نفسه .

٥ ـ مراجعة ما اقتبسه المصنّف من كلام العلماء :

قمنا بمراجعة المصادر التى اقتبس الكرمانى منها للتأكد من سلامة النقل ، وعدم تصحيفه على أيدى النساخ ـ وكان يوثق ما اقتبسه بذكر المصدر الذى اقتبسه منه .

٦ ـ إذا كان الكلام على توجيه الآية قد سلف ذكره أشار المصنف إلى ذلك بقوله: (سبق) ولكنه لا يبين فى أى موضع ، وتكثر هذه الإحالة الغامضة فى أواخر الكتاب . ولتسهيل الوصول إلى ما سبق ذكره نبهنا فى حواشى الكتاب على هذه المواضع .

سادسا : تيسير النص على الفهم :

ـ عرّفنا ما تدعو الضرورة إلى تعريفه من الأعلام الواردة فى النص مع مراعاة الإيجاز.

ـ قمنا بضبط الكلمات التى يحتاج إلى ضبطها جمهرة القراء مع شرح الغريب منها .

ـ وضحنا أى غموض فى عبارة النص دون استطراد فى الشرح .

سابعا : التعقيب على المصنف :

ويشمل ذلك الأحوال التالية :

ـ الرد على الآراء التى لا تستند إلى دليل مثل تعليل التكرار فى كثير من الآيات بمراعاة الفواصل .

ـ التنبيه على الإسرائيليات كلما صادفناها ، وقد تسربت إليه عن طريق بعض التفاسير التى نقل عنها .

ثامنا : مصطلحات فى مواطن خاصة :

ـ عند الانتقال من سورة إلى سورة تليها وضعنا اسم السورة وسط السطر وعلى يمينه العدد الذى يشير إلى ترتيب السورة فى المصحف الشريف وقد حصرناه ما بين معقوفين للإشارة على أنه زائد على الأصل .

ـ اعتاد المؤلف عند انتقاله من توجيه آية إلى أخرى أن يبدأ بعبارة (قوله تعالى) [1] وللتنبيه على هذا الانتقال وضعنا أمام هذه العبارة دائرة مطموسة (●) أما إذا كان الكلام لا زال مستمرا على نفس الآية ولم ينتقل إلى آية أخرى وضعنا بدلا من هذه الدائرة شرطة (ـ) .

ـ أشرنا إلى وجه الورقة فى المخطوطة بالحرف (أ) وإلى ظهرها بالحرف (ب) .

تاسعا : متابعة اهتمام الجامعات بتحقيق النصّ :

أهمية هذه المتابعة تتركز فى بيان عناية الجامعات بتقديم الأولى فالأولى من كتب التراث مما يوضح دقة الاختيار فى هذا الصدد وقد تبين لنا :

* أن جامعة الإمام محمد بن سعود قد عنيت بالآثار العلمية للإمام الكرمانى عناية تستحق الشكر ، وذلك باختيارها لمؤلفين من مؤلفاته ليكونا موضعين لرسالتين مقدمتين للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه من أحد أبناء الجامعة وهو السيد / ناصر بن سليمان العمر / قسم الدراسات العليا / أصول الدين وهذان المؤلفان هما :

---

(١) قد يحذف الناسخ لفظ (تعالى) فى بعض النسخ ومنها النسخة الأصلية ، بينما يثبت فى باقيها ؛ لذا جرينا على إثباته مطلقا مع عدم وضعه بين معقوفين إذا لم يكن موجودا فى النسخ الأصلية .

أ ــ (البرهان فى متشابه القرآن) وكان موضوعا لرسالة الماجستير .

ب ــ (لباب التفاسير) وكان موضوعا لرسالة الدكتوراه .

وكان تحقيق كتاب (البرهان فى متشابه القرآن) أيضاً موضوع رسالة الماجستير التى حصل عليها الأستاذ / منصور محمد منصور ــ كلية دار العلوم / قسم الشريعة / جامعة القاهرة ، وكانت الموافقة على الموضوع سنة ١٩٧٤ وأشرف على الرسالة فضيلة الأستاذ الشيخ محمد على السايس فى كلية أصول الدين ــ القاهرة / جامعة الأزهر .

إلا أن الرسائل الجامعية وللأسف الشديد لا يستفاد منها خارج الجهات المكلفة بمناقشتها ــ والذى ينشر منها إنما ينشر بالمجهودات الشخصية أو بتوصية خاصة وذلك كله لا يتعدى نسبة ١ : ٢ ٪ من مجموع هذه الرسائل ، وهى نسبة جد تافهة .

حاجة العالم الإسلامى إلى نشر الرسائل الجامعية وتبادل موضوعاتها :

تتبين أهمية ذلك مما يلى :

١ ــ الحيلولة دون تكرار المجهودات العلمية وتشتيتها سواء فى ميادين تحقيق كتب التراث أو غير ذلك من الميادين . والذى يتصل بموضوعنا الآن هو كتب التراث فقط .

هناك عشرات الآلاف من كتب التراث الهامة التى لم تحقق ومع ذلك تتجه الرسائل الجامعية بوجه عام إلى الكتب التى تم تحقيقها ، ولا يتجه إلا القليل منها إلى تحقيق آلاف المصنفات التراثية التى لم يسبق تحقيقها .

وهناك الآلاف من كتب التراث التى حققتها أعلى المستويات العلمية فى العالم الإسلامى، ومع ذلك تقوم بعض الجامعات بطرح هذه الكتب كرسائل لنيل الدرجات العلمية ! . وليت شعرى كيف تقوم أيةُ هيئة علمية لها وزن على تحقيق كتب التراث وكيف يتأتى لأية هيئة علمية أن تقوم بتحقيق كتب التراث التى نشرتها مطبعة بولاق ؟ أو أى مجمع علمى فى العواصم العربية ؟ أو دائرة متخصصة مثل دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن بالهند ، وشهرتها معروفة فى ميدان تحقيق كتب التراث الإسلامى وخاصة علوم الحديث والتفسير ؟

وأذكر فى هذا الصدد أن هذه الدائرة تولت تحقيق ونشر أندر مصنف فى التفسير فى باب المناسبات ألا وهو تفسير الإمام البقاعى (ت ٨٨٥ هـ) والمسمى (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) وهو أمل طالما راود تحقيقه كبار العلماء فى أنحاء العالم الإسلامى ، فأردت أن أساهم فى هذا الشرف بتحقيق تفسير جزء عم منه كى أسبق دائرة المعارف العثمانية فى إصداره ، وكانت دائرة المعارف قد وصلت إلى نشر تفسير الجزء الرابع والعشرين من القرآن الكريم . وأثناء قيامى بهذا المجهود العلمى صادفت فريقا من طلاب الدراسات العليا المنتمين

إلى إحدى الجامعات يقومون بنقل أجزاء هذا التفسير الجليل. ولما استفسرت منهم عن السبب، علمت أن الجامعة قد وزعت هذا التفسير على رسائل ستقدم للحصول على درجة الدكتوراه فى التفسير !

فأخبرتهم بأن الأمانة العلمية تحتم أن تقدم الرسائل فى الجزء الباقى من التفسير والذى لم تنشره بعد دائرة المعارف العثمانية ـ كما ينبغى أن يكون ذلك بعد إحاطة هذه الهيئة العلمية بذلك تحاشياً من تكرار المجهودات ـ وصُدِم الطلاب لهذا النبأ ، وبعد أسابيع أخبرونى بأنهم قد رجعوا إلى أساتذتهم فأفادوهم بأن دائرة المعارف العثمانية قد أفادت أنها لم تنشر هذا التفسير !!

ولا أعلق على شيء من هذا بعد أن شاهد معى السادة الباحثون الجزء السادس عشر مطبوعا .

٢ ـ أن الاطلاع على الرسائل الجامعية عن طريق نشرها يفيد فى تقييمها ومعرفة جديتها، وأصالتها وعدم التساهل فى اختيار موضوعاتها مما يكون كصمام الأمان لمراقبة هذه الرسائل التى لا يغيب عن ذهن أحد أن مادتها قد تكون مقبولة لدى الجامعة ولكنها مرفوضة نهائيا خارج أسوار الجامعة . فهناك رسائل فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ مليئة بالانحراف .

٣ ـ أن عدم نشر الرسائل الجامعية يعطل حق الأمة فى تيسير الاطلاع عليها والاستفادة منها حيث يمكن الاستفادة ، كما تعطى الفرصة لرجال الفكر لتصحيح مسار الموضوعات بحيث تتلاءم مع احتياجات المجتمع ، أو نقدها لبيان ما فيها من انحراف إن وُجِد .

هذا وبالرغم من أن الرسائل علنية إلا أنها تعامل معاملة أشبه بالموضوعات السرية لدرجة أنها تعتبر فى حكم المخطوطات النادرة .

٤ ـ أن عزل الرسائل الجامعية عن المجتمع ومؤسسات الدولة إنما يؤدى إلى اغتراب الجامعات عن الواقع وتخلفها عن سد حاجات المجتمع الأساسية مما ينجم عنه إلحاق أسوأ الأضرار بالمجتمع والدولة ، فبينما يكون الشعب فى أشد الحاجة إلى أبحاث معينة فى شتى مناحى الحياة ، إذا بالرسائل تدور حول مسائل بيزنطية لا ارتباط لها بالواقع الذى يواجهه المجتمع والدولة مما يضطر ويجبر على الاستجداء فى سوق الخبرات الأجنبية فى مجالات التنمية الزراعية والصناعية ومجالات الخدمات .

وما من شك فى أن احتكاك الجامعات بمشاكل المجتمع وقضاياه سيثرى الدراسات العليا بموضوعات حياة لا تنتهى ؛ لأنها دائمة التجدد وهى فى نفس الوقت تتصل اتصالا حيوياً بتقدم الشعب ومكانته على الصعيد العالمى .

ولا توجد فى العالم جامعة فى إمكانها أن تعيش فى معزلٍ عن الشعب وقضاياه .

٥ ــ حتى يتم نشر الرسائل تدريجيا ، أقترح لتفادى هذا العيب :

أن تقوم كل جامعة بإصدار نشرة سنوية (تقويم سنوى للرسائل الجامعية) يتضمن موضوعات الرسائل المجازة خلال هذا العام الجامعى والرسائل التى لا تزال قيد الدراسة أو البحث ، وذلك يشمل جميع الكليات التى تتبع هذه الجامعة .

ويتم تبادل هذه التقاويم على مستوى الهيئات العلمية والتعليمية والجامعية فى العالم . وبناء على هذه النشرات يتم تخطيط موضوعات الرسائل كما تتم الاستفادة من الرسائل المجازة كلما دعت ضرورات الأبحاث إليها .

عاشرا : ختمنا الكتاب بفهرس فنى يوضح معالمه ويساعد القارئ والباحث على الاطلاع عليه والإفادة منه :

وبعد :

فهيا بنا إلى مائدة القرآن العظيم التى لا ينفد نعيمها ولا ينقطع عطاؤها .

اللهم فقهنا فى القرآن فقها تصلح به أحوالنا ، وتملأ بنوره وجودنا .

اللهم وأذقنا من حلاوة معانيه ما يحول بيننا وبين الالتفات إلى شىء سواه .

اللهم واجعل القرآن الكريم شفاءً لصدورنا ، ونورا لقلوبنا ، وروحا لأرواحنا ، واقسم لنا من هديه ما يجعلنا نتخلق بأخلاق من أُنزل عليه القرآن ، فكان خُلُقه القرآن صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين آمين .

محقق الكتاب

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله

عميد أسرة تحقيق التراث الإسلامى

لعلوم القرآن والسنة المشرفة

obeikandl.com

obeikandl.com

نمـــاذج مـن المخـطـوطـــة

من نسخة التحقيق (النسخة الأم) لكتاب (البرهان فى متشابه القرآن) وهى نسخة مكتبة طلعت رقم ٣٠٩ تفسير بدار الكتب القومية وإدارة التراث ومنها يتبين بوضوح :

أن الورقات الثلاث الأولى بخط حديث مغاير لباقى الكتاب ، ثم تبدأ القطعة القديمة من المخطوطة من أول الورقة الرابعة إلى آخر الكتاب الذى ينتهى بالوجه ٥٢ / ب وأثبت فى آخره تاريخ النسخ وهو سنة ٧٥٢ هـ .

obeikandl.com

obeikandl.com

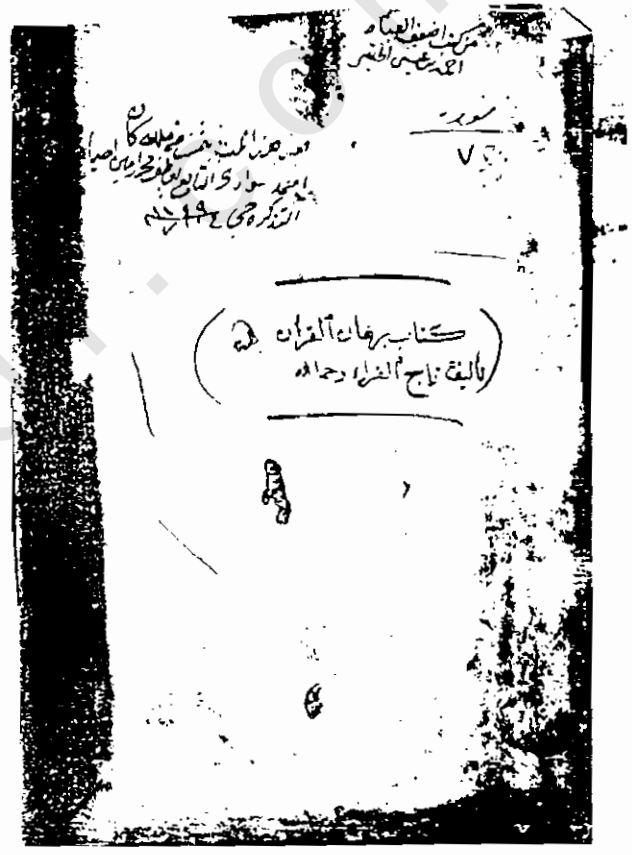

ظهر ورقة الغلاف السابقة للورقة الأولى وعليها تاريخ التمليك .

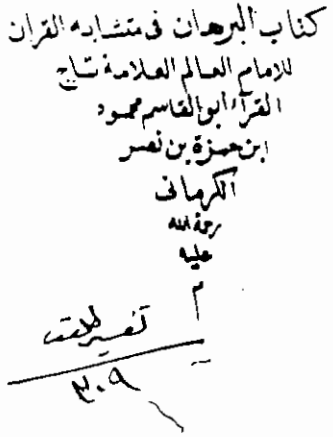

وجه الورقة الأولى (١ / أ) وعليه العنوان .

obeikandi.com

ظهر الورقة الأولى (١ / ب) وعلى هذا النمط الورقتان والثانية والثالثة من الأوراق المكتوبة بخط مغاير لخط النسخة «الأم» ويلاحظ الفرق الكبير بين الخطين .

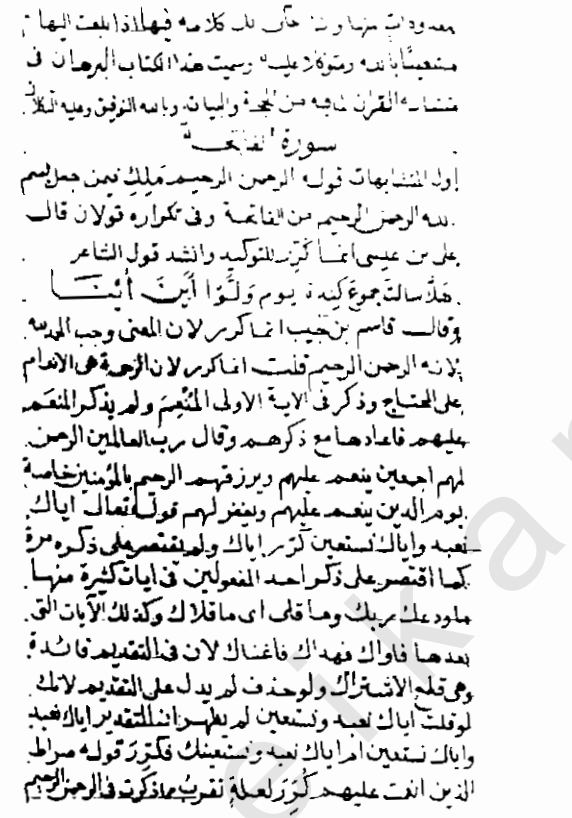

وجه الورقة الثانية (٢ / ١) .

obeikandl.com

وعرض عليه السلام عليه في السنة التي
توفي فيها مرتين وكان آخر الآيات نزولا واتقوا
يوما ترجعون فيه الى الله فامره جبريل ان
يضعها بين آيتي الربا والدين وذهب جماعة
من المفسرين الى ان قوله في هود قل فاتوا
بعشر سور مثله معناه مثل البقرة الى سورة
هود وهي العاشرة ومعلوم ان سورة هود مكية
وان البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانفال
والتوبة مدنيات نزلن بعدها.
وفسر بعضهم قوله ورتل القران
ترتيلا اي اقراه على هذا الترتيب
من غير تقديم وتاخير وجاء التكبير
على من قرأه مكوسا ولو حلف انسان
ان يقرأ القران على الترتيب لم يلزمه الا
على هذا الترتيب ولو نزلت جملة كما اقترحوا
عليه بقوله لولا نزل عليه القران جملة
واحدة لنزل على هذا الترتيب وانما تفرقت سوره
وآياته نزولا لحاجة الناس حالة بعد
حالة ولان فيه الناسخ والمنسوخ ولم يكن ليجتمع نزولا
وابلغ الحكم في تفريقه ما قاله جماعة وقرانا فرقناه
لتقراه على الناس على مكث وكذا اصل تبنى
عليه مسائل والله اعلم قوله تعالى
قل فاتوا

ظهر الورقة الثالثة (٣ / ب) .

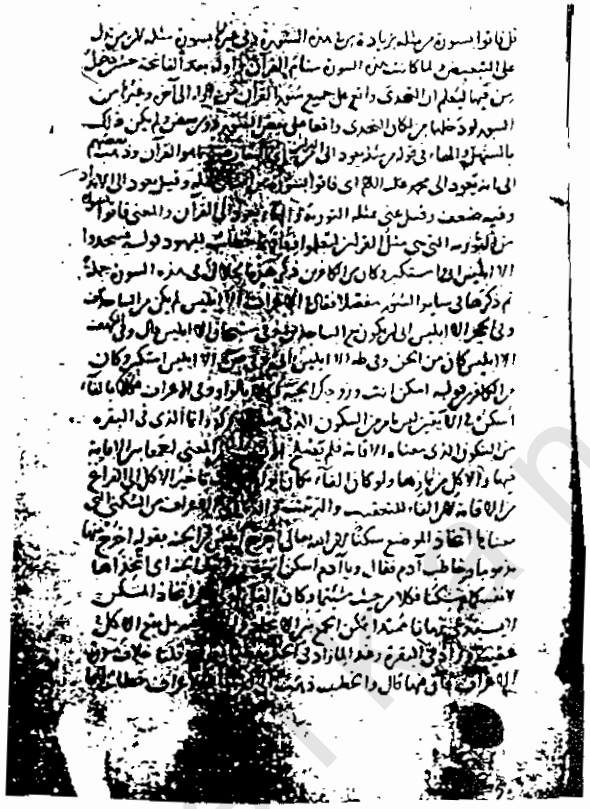

وجه الورقة الرابعة (٤/أ) وهو بداية الأوراق المكتوبة بالخط الأصلي للنسخة الأم .

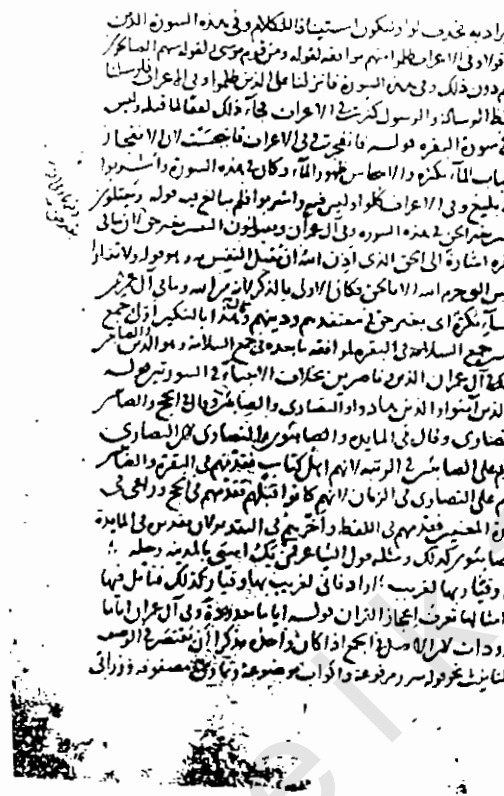

وجه الورقة الخامسة (٥ / أ) .

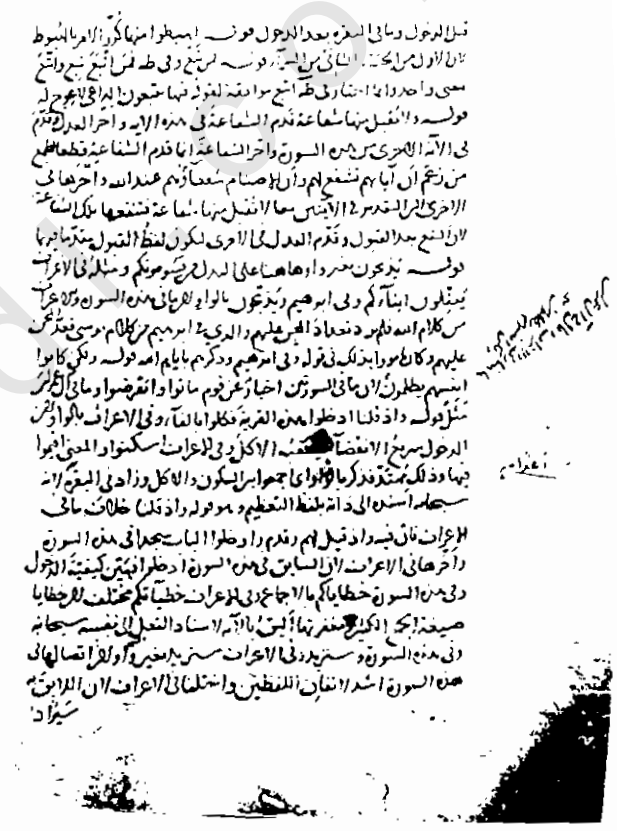

ظهر الورقة الرابعة (٤ / ب) .

ظهر الورقة الحادية والخمسين (٥١ / ب) .

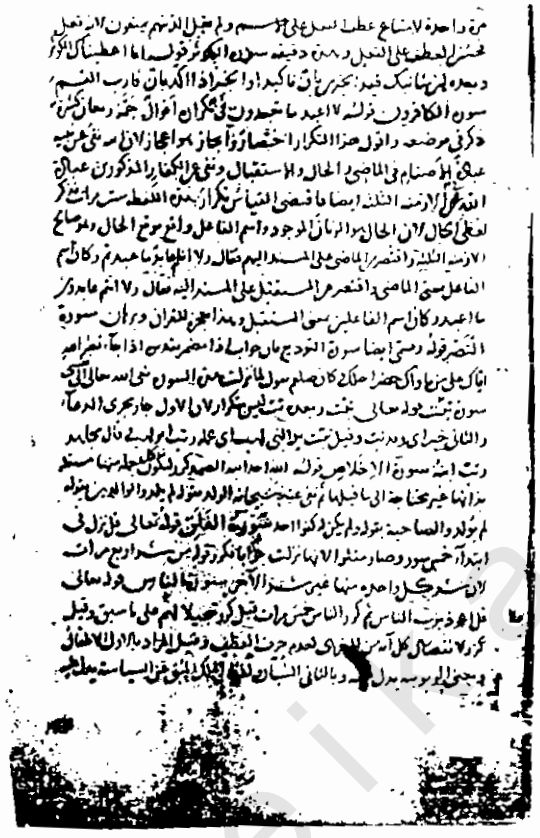

وجه الورقة الأخيرة من النسخة « الأم » (وجه ٥٢ / أ) .

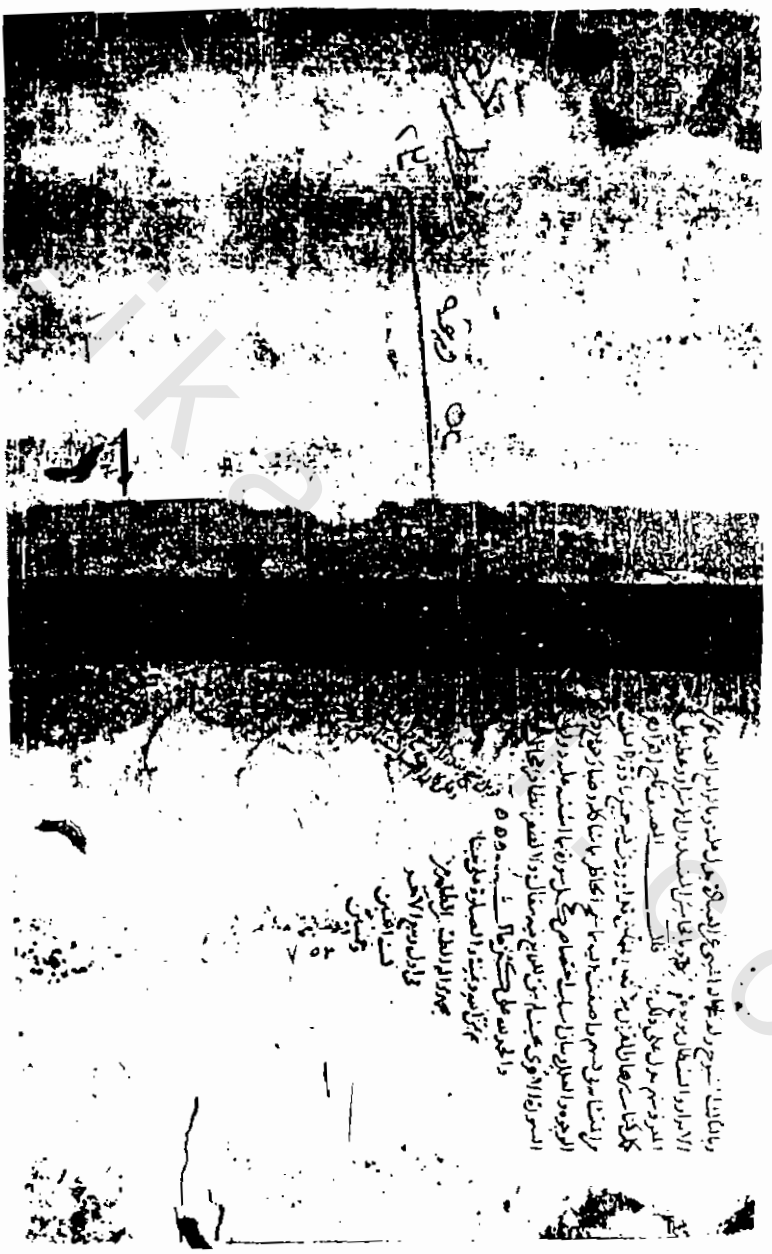

ظهر الورقة الأخيرة (٥٢ / ب) من النسخة « الأم » .